

زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: في بيتنا يهودي
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7478
Literar-Mechana

طُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ Expressprint

رواية

في بيتنا يهودي

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: في بيتنا يهودي

هاهي الكلمات تنزف من جديد، ومشط القلم يزود الجرح جرحاً والتفرقة تفرض سلطتها على البشرية وقانون الغاب يطبق قوانينه في مجتمعاتنا.....

لقد نفت الكاتب زهير حروفه على الورق تاركاً بين سطورها أحلام قتلت وأجساد سلبت أرواحها، وجرائم لم يدان مرتكبيها بعد، منذ ذاك الزمن وإلى يومنا هذا. أفعال شنيعة ارتكبت بحق أناس ليس لهم ذنب سوى أنهم خلقوا من غير عرق أو ملة أو دين، والدين مبرأ من هذه الأيدي الملوثة بدماء الأبرياء ومن عقولهم المملوثة بأفكار قذرة وبقلوب مشحونة بالكره، التي حولت الانسان إلى شيطان. ولقد اختصت هذه الرواية لتطرح موضوع جدير بالأهمية اختصر فيها بشاعة مذابح هذا العالم ضمن فئة معينة من كوكب الأرض ألا وهي النازيين واليهود وكيفية تعدي النازيين على اليهود بغير حق وإن سألت عن السبب؟ وبكل صوت مرتفع يصدر الجواب لأنهم يهود. وما معنى يهود؟ لا ندري. وتحل الكارثة الأكبر من دون سبب

يصبح القتل مجرد تقليد بدافع الكره الغير معروفة أسبابه .وهذا التقليد أتلّف أحلام بطل هذه الرواية الذي فر هارباً من أولئك الوحوش متخفياً خلف أبواب بيوت شهدت مصرع الموت كما شهده هو من قبل وتلك المرأة الطيبية التي دفعت ثمن سنوات عمرها وتنازلت عن مهنتها لأنها ولدت يهودية وبدافع خطة خبيثة تحت مسمى الحب حولت تلك الطيبية الى ربة منزل .أي عدل هذا حين يصبح المجرم حر والحر مسجون والأبرياء خطر على المجتمع والأمان تحت أجنحة الظالمون .أين هي تلك المحاكم التي تهتف بالحق وتنص دستور العدالة وأن لالإنسان حقوق، وأين هي محاكم الإنسانية؟ لن نجد العدل ياسادة ما دامت إنسانيتنا مختومة بالشمع الأحمر والضمير دخل بغيبوبته الأبدية، رواية حملت في طياتها وجع ملفت حول حياتنا المهتدة بالموت، التي تشهد كل ساعة قتل وكل يوم معتقل وأطفال تذبح كالخراف أمام أعين أمهاتها وبيوت تهدم لكسب مساحة أوسع لتنفيذ أكبر مشروع للزمن (مسالخ للتاريخ)، فالأجيال قادمة والصحف يوماً ما سوف تكتب فويل لهم بما أقرفت أيديهم....

وويل لهم من جور قلوبهم

شروق المسالخي

إهداء

إلى الإنسانية

في بيتنا يهودي

أن تكتب عن أمة في زمن الموت ..

لعمري هذا موت آخر، المصيبة ليست في الأمة بل في الطرف الآخر من أناس أضحت شهاداتهم في زمن الحرية شهادة إنسانية..

تاريخ ! ..

ما هو الرابط المشترك بين أن تكون إنسانا وبين التاريخ !
إنها الحياة والموت، هنا على مقربة من الحياة توجد خلية نائمة على دمها، مسيح حولها ألف ألف سور، ومسورون بالجنود الحمر البيض المهق الذين ينتمون إلى فصيلة إما نحن إما هم !!
إقصاء ما بعده إقصاء ..

مجرّم بتهمة أنك تعبد الله، لك من المال الذي جنّيته مدى الحياة ثروة قارون، ولكن عين غيرك بمالك ومقتنياتك وكل ما تملك، إذا تلخيص ما أنت به في هذه اللحظة وفي هذا الوقت من الزمان الذي بالفعل هومضى بأنك أنت مطارّد بكل عتاد الموت..

الموت هو الآلة الوحيدة لكي يستقر الإنسان تحت هذه الأرض، ولكن لا أضمن مكوناتك طويلا تحتها إن كنت قد طويت عظامك تحت تراب وطن من فوقه من بشر مهددون بالفناء ..

في بيتنا يهودي

سوف تتكالب على صمتك جنود مجندة من حالات التعجب والاستفهام، ما هودنبي إن اخترت ديننا ما لا يأمر بقتل ولا بنفي!..

ذنبك الوحيد هو بأنك منهم ..

مشدود كأحجار أحرف التوراة تحت الأرض، تطبع نصوص النور في أمواج الظلام، تريد أن يسطع نورك في هذا الملكوت كي تظهر عقد الطريق من تلبيس إبليس، لم يعد إبليس عدوك ولا أبنائه الشياطين، ولا حتى أحفاده العفاريت، ولم تعد تخشى نار الله الموقدة التي تهدد آخرتك بأن تمكث في أحشائها عمرا الله أعلم بمداه وجزره ..

هم مده وظلمهم جزره وأنت مجرد من الحب يتسلون بك كي يخدموا غضبهم بك، إن القهر الذي أصابهم ليس لأن انتمائك يضاهي انتمائهم، هم قوم لا انتماء لهم سوى الدم والذبح والتفريق ..

هم غضبهم لأنك أنت أفضل منهم فضلا وعقلا وإنسانية وأخلاقا وخلقا، عيونهم تلمح مشيتك على شوارع لك الفضل بتعبيدها بمالك الذي جنيته طهرا وعرقا، عيونهم تنقب عن مفاتيح مخازنك ومتاجرك وعماراتك في أرقى المناطق، ومع أن الله حرمهم وأكرمك ..

في بيتنا يهودي

فعليك أن تتلقى الطعنات من سمومهم التي لا تعد ولا تحصى، أنت قادر على إحصاء ضرباتهم، ولكن الوقت والجغرافية والتاريخ والانتماء استطاعوا أن يخونوك في ليلة جردك القمر فيه من لمعة سلاح، لأنهم يظنون ويعتقدون بأن هذا الوطن لهم هم وأنت لك الخيرة التي منحك الله إياها، هم قالوا لك يوما في بداية وحشيتهم :

- أستم أنتم شعب الله المختار !! ..

كنت لا تأبه لكلامهم لأنهم في نظرك لفيما من المجرمين تتهق وتتعق بما لا يجب أن ينطق :

- إن الله يختار شعبه على حسب حبه له ..

لطمك على وجهك ذاك القدر، أراد أن يخرج أسوأ شيء فيك ولكن كلامك أدامه لأنه من شعب الله الذي نبذهم وسلط عليه التاريخ الحافل الذي جزهم جزا وجعلهم منهم عبرة للأجيال، ولكنهم يا ليتهم كانوا يأخذون العبرة، لا عبرة مع أحفاد الأرحام الممزوجة بدماء الخنازير، إنهم خنازير بيضاء تصلح لحفل شواء ولكن على هيئة بشر، وجوه قبحها الله فوق قبحها وجعل منهم التاريخ قطعة سوداء لعملة واحدة ..

إنه زمن يخالف زمانك ..

ومكان مقاسهم لا يستهويك أبدا ..

في بيتنا يهودي

وأنت محتار بين أن تهرب إلى أرض أخرى كي تبدأ من جديد، تصرخ في أذنيك الحمية، تهتف المشاعر في مظاهرة الجسد، تريدك أن تتماسك كي تنهض من جديد وتثبت لهم بأنهم مخطئون وأنت أنت على حق، إن هذه الأرض لك، وهذه ممتلكاتك، ولكنهم لا يكفون عن المضايقة والتحرش وتلقيبك تعبيرك بدينك، لأنهم في قناعتهم أنت أتيت كي تأكل حقهم، وفي الحقيقة إنهم شعوب مروضة على النوم والتهام الأعلاف وتجرع الكحول حتى نام فيهم الأمل وناموا بجانب شهواتهم وجلدهم الخنوع ..

لا تلم نفسك أبدا ..

كان أبوك رجلا فاضلا، يعرفه القاصي والداني، قد أفنى حياته في معالجة المرضى وخصوصا الأمراض المزمنة، مركز العلاج يتوسط المدينة، في العطلة يخرج إلى الفناء والغابات ويتسلق الجبال كي يحظى على أعشاب أو مواد لمعالجة المرضى ..

السيد : نوعام إيتن ..

لم ينسلخ من جلباب الله أبدا، عاتبه حاخام المدينة ذات عيد، عندما كان مجتمع بكبار القوم في المجلس الأعلى للأخبار والطيايسة :

في بيتنا يهودي

- السيد نوعام رجل مجد، يحرص على أن يعالج الناس جميعا، يعمل بإنسانية تامة جدا، له بصمة رائعة في المدينة، حتى أن هناك كثير من أبناء المدن والقرى المجاورة يترددون إلى مركز العلاج الخاص به كي يداوون مرضاهم، ولكن لي عتب كبير عليه وهذا شيء يحزنني جدا ..

كان المجلس يحرق جيدا بالسيد الطبيب، هذه أول مرة الحاخام يلقي عليه نقطة سوداء ولكن لم يفهم ما الخلل الذي ارتكبه :
- سيدي الحاخام لم أفهم ما هو سبب العتب !! ..

- سيد نوعام إنك لا تأتي إلى الصلاة أبدا، والجميع لم يلحظ هذا الشيء، وكما تعرف هذا الشيء ينزل من شعبيتك بين أبناء اليهود، وقبل كل شيء ينزل من قدرك أمام الله، وكيف سوف تجد البركة حينها ..

ربما فهمت شيئا من خارطة الرواية، ولكن لا أحب كتابة الموت، في الحقيقة كل شيء قد مات فينا، لا أجد كتابة الأمنيات لأن الدماء لطخت دربنا الذي شققناه نحو السماء، وكذب من قال بأن السماء صافية والعصافير تزقزق !!

لوشاهدتها تلك العصافير التي كانت تلقي على رؤوس الأبنية حمولات من القنابل والمتفجرات تحت حجج واهية أكاد أستقدرها ..

في بيتنا يهودي

هل تريد أن تهرب !! ..

إلى أين يا فتى !!

أن تترك كل هذه الثروة، أن ترمي خلف ظهرك تلك الأزقة
والشوارع والمتاجر والمحال، أن تدوس على مبادئك من أجل
غيرك، أنت تخدم رحي النور الذي زرعه أبويك في قلبك، أن
تسرق أنفاسك وتهوي حيث هوى أهل الهوى !!

ماذا يعني كل هذا الهراء !، أنت لا تعرف من أنت إلى الآن،
أنت صاحب الحلم الذي يريد أن يكون ..

هيا انهض وتعال معي ..

إلى أين !

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

تعال ..

لا تقلق ..

أن تمسك بيدي على كف أرض مالت عليك وعلى أهل بيتك
وأبناء طائفتك فقط لأنك تحترم قانون الله ونبيه يعقوب وداود
فهذه جريمة في حق من جعلوا من المدنية سلاحا نوحين بقتلك
وقتل كل من يسانديك ..

تعال ..

أنت لم تسمع لكلام أحد لأنك في ماهية جداول قلبك أنت تريد أن
تكون كما تريد أنت، لأنك لا تؤمن بأن ينصحك شخص فاشل،
ولو أراد فعلا نصحك لأنتفع بها لنفسه، ولكن حشوا الأنوف في
أدبار الغير يعد ثقافة عند الشعوب الفارغة المتفرغة لنشر سمها
وسمومها ..

تعال ..

ما معنى أن تسيير خلف ظل الكلمات ودمك مهذور لسبب أو من
غير سبب، هكذا أنت في عين الغير عبارة عن احتياط على هذا
الكوكب، وإن كنت فائضا حقا وأنت في عيونهم فائضا فعلا
فيجب عليك أنت تغادر من هنا ولكن إلى أين ! ..

تعال ..

في بيتنا يهودي

خليل الظل مذ أن أخرجتك أمك في ليلة السبت، حيث كانت
التوراة تتلى على مسامع الظلام كي تخترق الحلقة وتنير ذاتك
وغيرك ولكن، ولكن ماذا!؟
تعال ..

أتذكر عندما جهزت حقيبة سفرك تريد أن ترحل إلى لندن كي
تدرس الطب تأسيا بالعقل السليم الذي ورثته من أبيك، كانت
أمك قد حلمت بك ورأتك في منامها بأنك ستكون طبيبا، راحت
تخبئ لك الذهب كي ترسلك إلى جامعة لندن التي توزن بالذهب،
ولكن !

تعال ..

نعم اذهب حيث حياة أخرى كنت تتمنى أن تعيشها وتعيش بك
ولكن قصر الرعب من عمرك عمرا وجعل الشيب ينخر في
رأسك نخرا، والعروق قد بدت تجدف على وجهك نهرا،
ولكن!..

تعال ..

تحمل ريشتك في أواخر الليل كي ترسم ما تريد، تحب الرسم
في الوقت الفائض من الوقت، ولكن الوقت في حياتك عبارة عن
آلة تسير، إلا أنك تسير مع اللون والريشة، فأنت ولوحاتك

في بيتنا يهودي

ومرسمك في علية المنزل عبارة عن عبارة تعبر بها مع الروح
إلى الروح كي تموت في جسدك ألف روح، ولكن !
تعال ..

إنها أرقامك العشرة التي بينك وبينها صلة قرابة تنثرها وتنشرها
كيفما تشاء وكما تهوى، إنها فضاء عقلك كالنجوم تجمعها
وتعجنها وتهرسها وتخرج منها نظرياتك كي تفيد بها أمة لا
ترجوا لك خيرا، إنه الرياضيات، كنت ولا زلت تخرج
النظريات تلوى النظريات ومع صغر سنك إلا أن الحياة في كفة
عقلك مجرد مواساة لبني الإنسان كي يبقى إنسان وإن رحل
تتغير تسميته ليكون بين أعداد الموتى وليطلقوا عليه ميت،
ولكن!

تعال ..

لم تضع في دماغك ولا للحظة من اللحظات نوايا أو أفعال
أو أقوال الناس، فالناس على مرأى سيرك نحو المستقبل مجرد
كوميبارس أنت فيه البطل والكاتب والمخرج والمنفذ، وغير ذلك
عبارة عن ثرثرة وضجيج وعواء يصدر من هنا وهناك، ولكن
الصوت يعني لك أن الحياة لا زالت تنبض بك، صوت واحد
تفتقده جعلك تخشى من نفسك على نفسك، صوت لويفتدى
بالأرواح لفديته به، ولكن دائما نقول ولكن ! ..

في بيتنا يهودي

تعال ..

يريدونك أن تذهب معهم، كلا هذا كذب، نعم وقمة الكذب، لا يوجد أهل في هذه الدنيا يحب الشر لابنه، هناك حالات خاصة جدا تكره الأبناء لأن محلول هذه الأرحام لم تكن على ما يرام، إن الصوت الذي جعل من صدرك مقبرة يعزف الآن ألحانهم، يحبون عزفك على البيانوتراقب أختك أصابعك كيف تنتقل من حجر إلى حجر كأن هذه القطعة النفيسة من اللحن خلقت لك أنت وحدك، ولكن الصوت الصادر مؤلم جدا لأن الخوف قد سيطر على كلك يا كل كلك ولكن ! ..

تعال ..

خطاب العقل والمنطق برز في كل خطاباتك كي تتحرر العقول من ماهية التحجر الجائر الذي يردي بالأدمغة البشرية إلى واد غير ذي زرع، ولكن أنت وريشتك وفكرك ولحنك وصوت صادر فيك كل ذلك هوزرع، تجالس الفراغ الذي تريد أن تملأه بما تريد لا بما يريدون لأن الحياة في ميزان عقلك عبارة ودستور لك أنت :

عش حياتك كما تريد لا كما يريدون ..

في بيتنا يهودي

تدون ما تريد باللغة العبرية وتضعها على مساحة من الخشب قد
نصبتها أمام مكتبك الذي تلتهم به الكتب كي تكون نورا، هل حقا
نور ! ..

نعم، ولكن ! ..

تعال ..

تعال كي تتقاسم الذاكرة والخوف المرعب الذي تهرب به ومنه
من بيت خرب إلى غابة مهجورة، تقول لك الحياة :

- لماذا لا تغير من مظهرك يا فتى ! ..

يكشر الموت غاضبا عن أنيابه ليرد :

- وأنت ما الذي تريده منه ! ..

تبتسم الحياة لك وتتنطق نورا :

- أليس في قلبك حلم تريد أن تجعل منه حقيقة ! ..

الموت يظهر تعاطفه معه ليقول :

- لا بدّ أن تدافع عن قضيتك ودينك، فالجنة بحاجة إلى أمثالك

من الشباب، أصحاب الهمم العالية .

الحياة تتجرد أمامك وتشدك نحوها :

- الجنة هي عقلك وقلبك وطهرتك ..

الموت له سمفونيته السوداء :

- عليك أن تبحث عن أهلك ..

في بيتنا يهودي

الحياة تجعله يصحون من غفوته وسكرة رعبه :
- أنت تعرف أين هم أهلك، ولوذهبت إلى هناك فاعلم بأن الناجي
الوحيد قد وضع جميع العائلة في قبضة الموت ولا أمل
لخروجكم من هناك .. ولكن ! ..

تعال ..

لوذهبت، لوأتيت، لوطردت، لوهبطت، لوشرقت، لوغربت،
فأنت منبوذ ومطبوع على صدرك نجمة داوود، فقط لأنك تحب
داوود .

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

أن تنام على ملة وتستيقظ على ملة فتلك لعمرى لعين المعجزة،
ولكن أن تنام على حقيقة مرعبة مشبعة بكابوس، وتستيقظ على
نور يخترق جبينك فتلك أحد مشاهد هوليوود ..
النور يتخلل كسر قد شج من النافذة ..

تتداخل خلايا النور متسللة إلى قاع البهو، تتلمس وجهك جيدا،
وجسدك بكفي المراقبة، أنت في هذا الفناء الصعب كتلة من
الخوف قد عجنت بك، أنت وحدك هنا والوقت مجرد جريمة لا
بد أن تكون أنت ضحيتها، هم يفتشون عن بقاياك، رائحة
جواربك، عطونة ثيابك الداخلية، شعرة من لحيتك أو من رأسك،
آثار مسير لهروبك المحتوم إلى نفسك، أي دليل يدل على
يهوديتك ..

مجرمون يريدون أن يهرقوا دمك من أجل أن تكون لهم القارة
البيضاء، أنت في فكرهم دمك أحمر وهم البيض الذين اصطفاهم
الله، لم يعترفوا ولن يعترفوا بالله، لأنهم يعتبرون الله قد دسك
بينهم لينتقم لنفسه ..

قد ينتقم منك الجوع عندما يمنحك رائحة شطيرة اللحم المقدد،
أوقطعة جبن بين دفتي خبز، أو كوبا من الشاي مع قطع من
البسكويت التي تعده لك أمك ..
أمك لم تعد هنا ..

في بيتنا يهودي

أنت الآن تتجسس على رائحة الخبز وصوت صادر من الطابق
البهو الذي اتخذته مسكنا لك، إنه ليس لك بل أرسلك الله إليه،
أوقاده الله لك ..

فلا بد أن تضع الآلهة نصب عينيك وأنت تحاول النجاة من
الموت أو من الجنود النازيين الذين يعتبرونك نقمة، أنت بالنسبة
لهم وجبة لذينة لكلاهم الجائعة، مسكين أنت وأنفك الذي يلتهم
روائح الخبز والبيض من الطابق الذي يعلوك مكانا ومأمنا ..

هيا انهض على شفير قدميك، راقب ماذا يجري حولك وماذا
سوف تفعل، فأنت محاط بكومة من البشر الغير معروفين، إنها
لهجة فضة لم تعدت سماعها إلا في أروقة الأفواه الألمانية
والضباط والجنود الألمان، لا تقلق لأن القلق هنا مفقود كهويتك
المفقودة، سلم خشبي وحيد هنا يظهر عليه القدم، تفرك عينك
جيذا كي ترى ما يدور حول رحي هذا القبر ..

صوت أطفال صغار يعيدك إلى حضن أمك، ربما لم يكونوا
صغارا، تبسم لصوت ملائكة الله، لأنهم في مخيلتك ملائكة
حتى يتلقوا تعاليم الكراهية والحقد والكذب، لا تريد أن تكون في
بيئة تكذب، ولكنك أنت مجبر على الانخراط بهم رغما عنك،
ربما الجغرافيا كانت ظالمة في توزيعنا، لا يهم فالمهم الآن بأن
خربشة في جوفك تتعارك بقاء على قيد الحياة، تريد أن تكون

في بيتنا يهودي

طفلا كبقية الأطفال، تهطل من عيونك دمعة بسبب ذاكرة مشبعة بالطفولة، أبناء إخوانك أو أخواتك يحيطون بك يداعبون لحيتك، يتمسكون بكتفك، يسحبون جواربك، يشربون قهوتك، يلقون بأوراقك أرضاً، يفرغون محبرتك على الجدران، الجدران ملطخة ببصماتهم، تغضب وتكظم :

- من الذي أفرغ المحبرة ولطخ الجدران !؟

يهزهم غضبك، ويجردهم من السكون، تتكلم أفواههم ابن أختك الكبرى :

- إنه سمعان ..

الجدران مطبوعة وملطخة بأصابع طويلة وقصيرة، أشياء مشتتة ومموهة وعشوائية هنا وهناك، الجميع متمسك في وسط الغرفة، أيديهم مصبوغة بالحبر الأسود والأزرق، أعطي الكلمة لسمعان كي يدافع عن نفسه :

- أنا لم فعل ذلك ..

أضحك في كينونة سري، يسقط قلبي مبتسماً رغماً عني، يظهر الضحك في وجهي، لا أستطيع أن أصمد أمام وجوههم الملطخة بالحبر، أبدأ بالقهقهة، تعلقهقهتهم معي نضحك معاً نقع أرضاً جميعنا، أخرج ما تبقى من الحبر ونبدأ نلطح الجزء النظيف من الجدران، في الحقيقة إن الجدران إن تكون عليها لمسة طفولة

في بيتنا يهودي

فإن في أمرها شك، يجب أن تترك للطفل حرية التعبير ولا تعيق مسيرته الفنية، دخل أبي قادما من المخبر الطبي، رأنا بمنظر ملطخ بالحبر، ظهر الغضب في وجهه، كأني أنا من أمرتهم أن يفعلوا هذه الفعلة، ولكن بعد أن سألتني :

- ما هذا !! ..

تلاشى الفرح الطفولي من أمامي، أجاب سمعان :

- إنه هومن فعل هذا !..!

أشار عليّ ذاك الوغد بعد أن سمحت له ولمن معه باللعب وتلطّخ جدران غرفتي، كدت أن أمسك بخناقه وأعلق رقبتة في أعلى الغرفة، تبا له ماذا فعل معي، إنها خيانة بحد ذاتها، ولكن أبي ظهر على وجهه ابتسامة كبيرة، كتلك الابتسامة التي غيرت ملامحي في أول مرة، حاول أبي أن يخمد تلك الابتسامة بأية وسيلة ولكن القهقهة اقتحمت فمه وأوقعته كما أوقعتنني، وضحكنا معه كأننا أول مرة نضحك بهذه الطريقة المشبعة بالحياة، ولكن الحياة كما أنها تضحكنا وأيضا تبيكننا ..

ها هي الآن تجردني من أبسط الأمور ألا وهي الحرية ..

مطارد يريدون أن يروا دمي أمام مرأى أعينهم، كأني حبرا ووقع بين أصابع أطفال، تعجبهم دماءنا الملطخة على جباه تاريخهم الذي يتقاطر منه معادة للإنسانية والبشرية، هم يحسبون

في بيتنا يهودي

أنهم من فصيلة البشر وغيرهم أعداء لهذا الكوكب، يا للهول
ماذا فعلوا بهذا الكون !! ..

لا شيء .. مجرد مزحة مع الطبيعة، جعلوا من هذا الكون مدينة
مأهولة بالخوف بسبب قنابلهم النووية المخيفة، سئل أبي أن ذاك
حينما سمع بأن أدمغة من البشر وظفت في تخصيب اليورانيوم
على هذه القارة، صعق يومها كانت ترتجف فرائصه، لا أعرف
ما معنى تخصيب اليورانيوم، حتى جلس وشرح لنا هذا الجزء
المفقود من المعرفة، كم تمنيت أنني لم أعرف، ولكن عرفت تلك
المادة عن قرب عندما رأيتها تهطل فوق مدن وعواصم كبيرة
تقلب الأرض عاليها سافلها وتجعل من يقطنون تلك المسافات
رمادا ..

ها هو الرماد يعود إليّ من جديد، يسكن معي حيث الحنين،
يجمعني بين قبضة السواد والضباب ويسحقني ويبددني ويذرنني
في قبولا أعرف عنه سوى أنه كان مهجورا والآن هو مأهولا
بعائلة ربما تكون من أهل البيت أو أنها أتت من تلك المدن التي
تصبح ليلا نهارا بذبحنا كالخراف، روائح الخبز المحمص تكاد
تفتك بأنفي أشعر بأن الجوع قد طحنني بين رحي الذاكرة،
والبيض المقلي استولى على عرش خياشيم قلبي، قرقة
الصحون والأشواك والسكاكين والملاعق ومشجرة الأطفال قد

في بيتنا يهودي

جعلت من ذاكرتي فطيرة شوق مدهونة بالحنين، أراها من بعيد
أرى صداها يرن في إناء الروح، كقطعة نقود حجرية خرجت
من الطابق الثاني إلى أرض المنزل ويتهافت عليها أحفاد أبي،
الكل يريد أن يمسك بها ليس حبا بالمال، بل حبا باستملاك
الشيء لجوهره الداخلي لا بقيمته المادية ..

في بيتنا يهودي

لا بد لكل شيء بداية ..

بداية الشيء هنا أن أكتشف المكان المأهول بأصوات الأطفال، وقبل كل شيء أريد أن أعرف ما تخبئه هذه اللوحات المغلفة بأكياس الخيش التقليدية، هناك فوق تلك الخزانة المحفورة يدويا شمعدان يهودي، أيعقل أن يكون هذا المنزل لعائلة يهودية، كشفت عن اللوحة الكبرى كي أرى ما تخذ ما بها، كان الغبار سيفضح أمرى إن لمحني أحدهم، ولكن كانت أصوات الأطفال تهدأ من روعي ..

إن روعي هنا برعاية الله وملائكته من أبرياء لا زالوا يتنفسون الصعداء، أريد أن أسير وحدي بعيدا عن هذا الكون، أريد مجرة تليق بما يحتويه قلبي، أكاد أسحب تلك الأغطية البالية بكل هدوء، ولكن الغبار تبا له من فاضح، إن فضحني فإن مصيري معلوم حيث الهاوية، سقط الغطاء تسمر قلبي على تلك اللوحة، إنه الحاخام أورى المعروف ببركته وكراماته في فيينا، من الذي أنزل تلك اللوحة إلى هذا القبو، ما كانت تلك الصور المقدسة تنزل إلى أسفل الأرض، ولكن للضرورة أحكام، فالأحكام هنا صادرة بمحوجميع من ينحدر من سلالة يعقوب حيا كان أوميتا .. شمعدان وصورة أحد الحاخامات وماذا أيضا، كيس كبير من الكتب بدأت أحل عقده عقدة تلوى العقدة، أغبرة وأتربة ونفايات

في بيتنا يهودي

ونوافذ متشققة ومتكسرة وأكياس كبيرة وصغيرة مترسه بلا ترتيب ولا توضيب، وأنا هنا ! ..

من الذي أحضرني إلى هنا ! ..

إنه الخوف من الموت، ومع أن الموت سيدركنا أين ما كنا فإننا نخافه ونحسب بأن هذه الحياة لنا، وهي لمن عمرها بالحب والسلام، والتاريخ له قيادة القلم في كتابة ما يفعله المجرمون، في حقيقة الحياة إننا في قلب هذه الطبيعة الخلابة التي لوثها بني الإنسان نحن كلنا مجرمون ..

نكسر غصنا، ونوقف نهرا، ونهدم جبلا، ونشق بحرا، ونطير عاليا في السماء في قوالب من حديد، محمول عليها بشر أوروبما حجارة من أبايل، ومن بعد ذلك نقول إنها حضارة ..

لن تقع الطبيعة ما دمت تخاطب العقول في حب الأصول أن لا تقترب إلى إبداع الله تحت قبة جامعة كل ما بها من أساسات مقطوع أخشابه من الغابة المجاورة، هل أنت أحرق ! ..

لا !! ..

إذا ..

أنا أريد أن أرى ما يجري خلف تلك المجلدات العامرة في أكياس لا تليق بالعلم ولا بأهله، إن أهله هجروه ووجهوا أدمغتهم

في بيتنا يهودي

لتصنيع الأسلحة كي يدمروا ما تبقى من جمال على هذه الكرة الأرضية ..

لن تعد تحمل تلك الكرة جنوننا بعد أن احتوتنا على سطحها عبر آلاف السنين، فما كان منها إلا وغضبت وغارت على كرامتها وأرسلت جنودها كي تسحب الأمن والأمان من تحت أقدامنا فترى الكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وأعاصير وزوابع وتشققات حتى اختل توازن الأرض وتأثر المناخ فلم نعد نشعر بالبرد ولا بالحر، كثبان من الجليد وجبال متجمدة قد ذابت بسبب غبائنا ظنا منا بأننا قادرون على إنشاء البديل، فتبدل الحال علينا من سيء إلى أسوأ واختفت كثير من الحيوانات التي كانت تعطي للروح مهجة بروائح أدخنة المصانع والمعامل والشاهقات التي لوثت السماء، بين كل مدينة ومدينة تغرق مدينة أخرى بقمامة البشر ومخلفاتهم التي تتحدر من أنابيب ضخمة وتصب بأحد البحار أو الأنهار الجارية، طافت الأسماك على الشواطئ موتا وقهرا، بسبب جشع وطمع الإنسان ..

نحن من موطن واحد، من رحم واحد، انحدرنا من خندق واحد، إن تغيرت ألوواننا أولهجاتنا أو عاداتنا أو تقاليدنا فما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا، أليس نحن من صلب آدم ومن رحم حواء!..

في بيتنا يهودي

فلما هذا الموت الذي يحصدنا يمنا ويسرى بلا رحمة ولا شفقة بأيادي بعضنا البعض!، كأنتي أسأل هذا السؤال لأحد الجدران المحصنة المنيعه المتينة التي لا تأتي أن تخوض معركة الجلوس على طاولة الحوار، جدتي التي كانت تعيش في إحدى القرى المجاورة لفيينا كان في منزلها أربعة كلاب، كان كل كلب أكبر من حجم الكلاب البوليسية المرعبة، كانت دائما تتحدث معهم لأنها تريد أن تعيش ما تبقى من عمرها معهم، لأنها اكتشفت بعد نصف قرن من مخالطة البشر بأن العيش مع الحيوان أرحم وأجمل بكثير من مخالطة الأدمغة اليابسة، كانت في حلول دائم مع الطبيعة الخلابه في أحد تلك الوديان الغارقة بسحر الله ..

أبدع الله تلك الواحة الخلابه، ولكن من يريد العلوفي الأرض من أمثالنا فلا تستهويه تلك الجنان بحاجة إلى جنة مصطنعة من حديد وبلاستيك كي يخوضوا ميدان الفساد ..

كانت الجدة قد أعطت لكل كلب اسمه الخاص، كل كلابها لا يلتفتون لأحد من العائلة ولا يخضعون لسلطة أحد إلا لسلطة الجدة التي كانت في توحيد تام معهم ومع الطبيعة، فلا أحد من الغرباء يجرؤ ويتخطى بيت الجدة لأن الكلاب عن قوة ألف من

في بيتنا يهودي

جنود النازيين الذين يعيثون في أوروبا فسادا ودمارا وحرقا وقتلا ونهباً ..

عاشت الجدة بين تلك الكلاب التي كانت تحيرني وتحير جميع العائلة كيف لعجوز تختلي بنفسها بين أربعة وحوش ألا تخاف من تلك الأنياب المسنونة للموت واللحم!، ألا تخشى من تلك المخالب التي يزداد بريقها يوماً بعد يوم لكل ما به روح! ..

نامت روحها يومها تحت شجرة التوت على سريرها الهزاز، وكلابها حولها نيام يحرسونها كملكة للطبيعة والهواء الطلق، طلقت الحياة طلاقاً بائناً وخرجت من هذه الدنيا قبل أن ترى تلك الوحوش التي تريد أن تطهر العرق الأوروبي من كل ما هو أوروبي..

شكرت الله على أنها غادرت بجسدها وروحها وذاكرتها ولم تحمل بين دفتي ضلوعها ذاكرة النار والحرق والتعذيب وسوق الناس إلى المحارق العامرة بالرعب والخوف، أنا على يقين الآن وبعد أن شاهدت تلك المشاهد الشرسة التي أراقت الدماء وعانت بالأرض فتكا وتنكيلاً بأن هذا الموت بالنسبة لها أحب من أن ترى ذلك السيناريو الذي كان يعد تحت الطاولة منذ زمن بعيد ..

في بيتنا يهودي

لم بق بعيد الآن سوى قبرها تحت شجرة التوت، قد غطتها
أغصان العنب وأخفت نجمتها، وسحبت كل ما يدعو لأثر قبر
كان قد وضع هنا، لقد أوصت أن تدفن في المكان ذاته الذي
خرجت به روحها، احترم أبي قرارها وجعل قبرها مساو على
الأرض كي تتسلق النباتات إلى صدر التراب بكل مرونة، مرنة
كانت حركة الأرض يوم وداعها، كانت الأتربة تلتهمها كأنها
قطعة من الجيلي، تنزلق في قعر الأرض كي تتخلص من عفونة
المواسين والمعزين وسواد الحداد، ولكن جاء الحداد الذي كانت
تحذرنا منه ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

فتح الكيس المعقود بخيوط عريضة ..

كانت الذاكرة تلاحقني وتلطمني، وكنت أسير في ظل المشاهد الجميلة كي أغدر بالرعب الذي فتك في مفاصلي، كتب فوق بعضها البعض قد كدست وأترست بإحكام، عناوين بلغتي الأم في الفلك والطب والفلسفة وعلم التوراة، جن جنوني لأن البيت مراقب من قبل النازيين وكل يوم يحومون حوله كأنهم ذباب ويطوفون بقطعة حلوى مكشوفة، وقع شيء فوقي ..

إنها ملعقة ارتطمت أرضاً، شعرت بأن قلبي هو الذي وقع، تدرجت الملعقة حتى زحفت إلى أحد الجدران، عدت إلى الخلف تذكرت ابن أخي الكبير الذي كان يريد أن يكون فيلسوفاً كما كان يقول، ولكن كنت أشك بحلمه لأن فلسفته قاتمة ولا أفهمها بسبب الخلوة الدائمة في مكتبة أبي، فلقد سمح له جده بدخول المكتبة بشرط أن لا يقرب إلى الجرارات الخاصة التي ت، طوى بها أوراق أبي الخاصة ..

كنت أريد الهروب من النافذة في ذلك اليوم الذي اقتحم الجنود الألمان بيتنا وكان بين غرفتي والبيت تلك المكتبة العامرة بجميع أنواع الفنون، لم يبخل أبي بشراء تلك الكتب حتى لو كلفت كل ثروته، فكان يوصي بها من الشرق والغرب بلغات عدة وخصوصاً علم الآلة والفكر والمنطق ..

في بيتنا يهودي

فمن المنطق أن تكون منطقيا في قلب مدينة تخشى لغة العقل، لأن العقل هنا أحد أنواع العلل التي ولربما تقود بك إلى الهاوية، لا هاوية على سطور من يتتبع آثار الجراح، ولا سيل من الدماء كدماء ابن أخي الكبير، كان الوقت عصرا عندما كان الجنود يحصدون الأرواح المتمردة في بداية الأزمة، فالذي يقول لهم : لا ..

فقد تم تسليم روحه إلى السماء على طبق من ذهب، كان يقول ذلك الفتى الذي لا يفتر عقله عن التفكير :
- كيف نصعد إلى السماء ونلحد في التراب !!، أليس هناك خلل في العقيدة ! ..

كان لا يتوقف عن طرح الأسئلة لأبي، وكان أبي يجيبه بكل هدوء كي يزرع في قلبه بأن الإجابة صحيحة، ولكن ابن أخي لا يغيره الهدوء لأنه دائما يظن بأن الهدوء في الحوار هولغة الضعفاء، بحاجة لقوة أكبر بين الغضب والهدوء تكمن إجابة فإما تكون صحيحة وإما تكون خاطئة، في تلك الأثناء خشيت على ابن أخي من أبي لأن العقيدة في قلبه لا تقبل المناقشة والمناظرة، كان أبي يجلس على كرسيه ويبيده أحد كتب الأعشاب عندما سمع السؤال من حفيده، ترك الكتاب وألقى النظرات ونظر إليه بكل مرونة :

في بيتنا يهودي

- بني السؤال جميل، ولكن أخشى أن أجيبك على شيء لا أعرفه، فلقد أخذنا هذه النصوص من الآباء والأجداد حتى وصلت إلينا، وها نحن اليوم ننفتح ما وصل إلينا وخصوصا ما طابق العقل والمنطق، وكونك باحث جديد على هذه العلوم وأسئلتك جريئة بعض الشيء فإنني سوف أقول لك أن التراب هو البوابة الوحيدة إلى السماء، أي أن خلف هذه الشاشة الزمنية تتخفى شاشة زمنية أخرى الصانع الذي أتقن هذا الكون المرئي هو ذاته الذي أتقن ذلك الكون الغيبي، فمن صدق الحقيقة عبر كلام أنبياء الله، فعليه أن يكمل إيمانه ويصدق الغيب الذي نقل عنهم ..

كان ابن أخي صامتا تماما يلاحق شفتنا أبي وكلامه، كما أنه كان يدون كي يطرح عليه سؤالا آخر ويضعه تحت العقل الواقع في واحة المنطق والفكر :

- ولماذا ممن جاور الأنبياء وصاحبهم لم يسألونهم في أمور الغيب !، هل السؤال في ذلك الزمان كان ممنوعا !، وإذا كان ممنوعا فهذا يعني بأن المنطق والعقل في تلك الآونة كانت مجرد وهم وخيال ولا وجود لها بسبب التخدير الروحاني، هل يعقل بأن هؤلاء الذين نطلق عليهم أنبياء كانوا سحرة !! ..

في بيتنا يهودي

كان أبي يتصعب عرقا، ربما خوفا من الله لأن هذه الأسئلة تسبب له توترا عصبيا حادا، لا يعرف كيف يتخلص أبي من ملاحقة الصبي وفي الوقت نفسه لا يريد أن يسكته حتى لا يتلقى العلم حفظا من غير أن يعمل عقله في تلك المسائل المعقدة، كنت دائما أعتقد بأنها ليست معقدة، لأن العقل عندهم إذا عارض النص فالنص مقدم حتى لو كان النص خرافة وفي كلا الحالتين خرافة، ولكن جرأة أبي جردته من الصبر كي يطوي تلك المسألة جانبا :

- أظن يا بني بأن الغداء أصبح جاهزا ..

كنت أرى أبي كيف يتهرب من تلك الملاحظات وحفيده الذي فاقه عقلا، ولكن والله خير الشاهدين كنت أخشى من أن أسأله أية سؤال ليس خوفا من ردعه بل خشية من هيبته التي أشبعتنا حبا تحت جناحه، في هذا السن بالضبط حيث يكون به الرجل من أن يسمع كلمة :

جدي ..

يبدأ العد التنازلي مع فوات الأوان في كل شيء، كي تنقص تلك اللهفة في أحشاء الرجل، ويعود طفلا وحول أحفاده يداعبهم ويلاعبهم ويقص عليهم ذكرياته وشجاعته وخشونة الدنيا التي زحفت نحوه، بالفعل كانت الدنيا وخشونتها نحوه عندما كان

في بيتنا يهودي

يجلس على متكأه في حجرة المعيشة ويتسامر مع أحفاده وخصوصا قبل أن ندخل في ليلة السبت حيث يجمع الأحفاد كي ينامون في بيتنا ويأمر بصنع الحلويات والمعجنات والعشاء اللذيذ لهم ويجلسون حوله كأنهم قطعان من الغيوم الناعمة وهو البدر المستنير في تلك الليالي الكاملة بهم ..

غرت كثيرا عندما أشاهدهم حوله يلتفون كجدائلهم الشقراء الناعمة وقبعاتهم المعقودة بشكلة صغيرة كي لا تسقط، كنت دائما أقول في قعر قلبي :

بأن هؤلاء الفتية أخذوا حقهم منه أكثر ما نحن أخذنا حقنا منه ..

كنت أعيش وأموت بين الظلم والحقيقة، ولكن بعد أن أرى تلك التجاعيد قد أخذت منه حيزا من الزمان والمكان أقف وقفة صدق معه لأهمس ولوخيالا في أذنيه :

- أن شكرا لك أبتى على ما صنعت معنا في الأيام السالفة، أن شكرا على كل دقيقة قد أهملتنا بها كي تعيننا على توفير متطلباتنا الحياتية، أن شكرا على كل آه خرجت منك ولم نسمع أنينها، أن شكرا على كل انحناء ظهرا بعد كل ظهر ولم نعي معنى ذلك إلا بعد أن رأيناك قد حفر على كتفيك :

أن هذا الظهر ما انحنى إلا ليرفع غيره ..

في بيتنا يهودي

من هو غيره يا ترى!، إنهم جمع غفير من الشبان الفتيات تفتحوا
بين صخور مجتمع أينعت على كرههم وها هو يقطف زهرة
تلوى الأخرى بعدة مسميات وعلى رأسها التطهير العرقي ..
التطهير العرقي قائم على قدم وساق، وحتى القدم والساق
أحضرت لهما سيوف مسننة تحلق وتقص وتنشل وتحرق وتأكل
الأخضر واليابس، وقع ابن أخي في قبضة تلك العصابة الشرسة
عندما نازعهم في منطقه ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

كانت به قوة الكون ..

كنت دائما أحتاط من المسافات الغير مرئية ..

وجوده واقف على مرمى من الحقد منهم، أنت هنا غير مقبول
أن تلقي بنظراتك في سواد وجوههم، تحتاج أن لا تحتاج كي
تنجو، ولكن المسافات كانت قصيرة جدا :
- لماذا لم تخرج أيها الفتى !! ..

الكتاب الذي في يده أكبر بكثير من أن يكثرث بهم، يقلب
صفحاته غير آبه لحديثهم :
- ماذا تريدون ..

بكل برودة أعصاب كان جوابه بسؤال موجها لهم، لم يجراً أحد
على توجه أية لمحة لهم، هم دائما من يسأل ومن يهجو ومن
يشتم، صدم الجنود بقوة الفتى الذي كان من المفترض أن يخرج
من غير أن يخرج أحد، ومن المفترض أن لا يرد على أحد
منهم أبداً، لقد نبهه والده أن يتلافاهم ولا يسمع إلى ترهاتهم
حتى تزول تلك الغيمة الساخنة من المدينة، قال لنا القدر
صباحها :

أن خستتم لزوالكم أقرب ..

ابتسمنا رضا بما أعطانا الله إياه من صبر، ولكن الصدمة كانت
قاتلة جدا، لطموا الفتى على وجهه شعرت بكسر قد شق رأسه،

في بيتنا يهودي

لم أستطع سحبه ولا الخروج إليه، كنت أنا الشاهد الوحيد في تلك الحادثة، ارتطم وجهه في الجدار حتى حاول أن يقف على قدميه ولكن من المحال أن تقنع هؤلاء الوحوش بأن هذا الفتى لم يبلغ الوعي بعد، وإذا أردت أن أنقذه فسوف أضحك على نفسي لأن المصيبة تكون بواحد وسوف تصبح بإثنين، في مساء يوم الإثنين كان الموت يترصد لمن يخالفهم حتى ولوبالرأي، أنت الأوامر من برلين إلى هذه العصابة بأن كل شخص سوف يخالف الرأي أن يسحق ويباد حتى لوكانت نملة، طبعاً هذا القرار نحن لم نعرف عنه بعد حتى سمعت أمي جارتها التي تعمل في الداخلية بأن هذه الأوامر صدرت بموجب التنفيذ ..

كانت البداية من بيت والدي، كانت النهاية على مقربة من ابن أخي ذاك الفتى الذي حير أبي في نوع تركيبة عقله التي تحررت من كل القيود، هناك وعلى مقربة من الصدمة رفعوا السلاح في وجهه وهمشوا ملامح وجهه بالرصاص الحي حتى سمع صوت تلك الرصاصات كل حي، بصمت المجرات التي تسير في سككها الخاصة، بهمس السماء حينما تزحف تحت سطح الغيوم، بانحدار المياه من الشلالات الجبلية بكيت بصمت على ابن أخي الذي كنت معجبا بعقليته ..

في بيتنا يهودي

هو الارتطام ذاته أسمعته ولكن بصوت الحنان الذي تخلى عنه أحفاد أبي، كنت ولا زلت أكرر هل أبي على قيد الحياة إلى هذه اللحظة !! ..

ليتني تعلمت فنون التنجيم والسحر والشعوذة حتى أقرأ كف الغيب وأعرف ما حلّ بهم، إن الذي حلّ بي أكبر بكثير من المصيبة التي لا أريد وأريد في نفس الوقت معرفتها، حتى هدأ صوت الأطفال في الطابق الأول الذي يعلو القبو الذي سجننت به من غير إرادة مني، الأم تنادي بأعلى صوتها :
- جاك !!، تعال أغسل يديك قبل أن تخرج للعب !!..

الباب يفتح، أشعر بأن الأبواب بحاجة إلى تزييت، إنها تزن وتحدث ضجيجا، الأقفال بحاجة إلى تجديد فعندما تفتح يحدث لها صوت مرعب، شيء يشعرك بأنك في منزل مهجور وأتاه الأهل من سفر دام خمس سنوات، ولكن هذا البيت يهودي من تلك المقتنيات القيمة الموجودة في القبو، على ما يبدو أن جاك عقله قاس جدا ولا يستمع لأمه أبدا، أرى خيالا مصحوبا بظل يغطي النور القادم من النوافذ المكسورة، أحذية أطفال وأقدام أراها تغطي النور، النور الذي اتخذته خليلا لي عندما كنت أشعر بظلمة البشر، أصوات فوضوية متناثرة كبراعم اللوز تغني وتنشد للجيش الألماني، أطفال يرددونها ويكررونها بين

في بيتنا يهودي

كل سكتة وسكتة، سكتة هنا لا تسمع لهذا الرعب الذي ينشده أطفال لا يعرفون ما معنى هذه الكلمات، ولكن هبط جسم صغير يريد أن يكتشف القبوبعيون جميلة تميل إلى الزرقاء، شعر تدلى كأنه سلاسل من الذهب الخالص :

- ماذا يوجد في هذا المكان !! ..

كانت طفلة بطعم التفاح، تخفيت خلف لوحة الحاخام ونظرت من ثقب صغير، كان أحد الأطفال بيده قطعة من الخبز والآخر من الحلوى، كانت قطعتان كبيرتان، ألقى أحدهم القطعة الأولى وبدأ يصرخ سوف نقتل اليهود، والثاني ألقى القطعة الثانية وصرخ بأعلى صوته سوف نسحقهم..

عجيب ما الذي ورثه هؤلاء الأطفال من آبائهم ! ..

تلاشت تلك الأقدام الصغيرة وجريت نحو الخبز والحلوى، كان شهيا إلى درجة لم أعرف ما هوطعمه، كانت تقول جارة أمي التي تعمل في الداخلية :

بأن جارة أختها في لينز قد أخذوها إلى معتقلات الموت والجوع، ولا يجدون ما يأكلونه في تلك السجون التي يموت بها آلاف اليهود فقط لأنهم يهود ..

التهمت القطعتان كأني أول مرة أكل في حياتي، حتى سمعت صوت باب العلية يفتح، سقط قلبي لأنني أعيش في حالة سقوط

في بيتنا يهودي

متكرر، فالقضية ليست في السقوط كلا، القضية في عدم وجود الأمان، عدت خلف لوحة الحاخام التي لا أعرف كيف دخلت إلى هذا المكان وبهذا الحجم الكبير، هل هذا البيت هوبيته أم بيت أحد أقاربه ! ..

الساق تتحدر شيئا فشيئا، وكلما داست سلما على الغبار وتأجج متاخلا بين النور والظلام، والأطفال يقفون خلف تلك المرأة التي ولربما هي أما لهم، مر الفأر من تحت السلم فجرى الأطفال يصرخون :

فأر .. فأر ..

تعجبت منهم كيف يخيفهم فأر وفي الوقت نفسه يريدون أن يقتلوا إنسانا بحجة التطهير، هل نحر الجماجم، وتجوع الأمعاء، وحرق الأجساد، وسحب قبائل من البشر بحجة أوبغير حجة إلى الموت رجولة !!

هل الرجولة أن تقتحم بيتي، وتحطم مقتنياته، وتعبت في جدرانها، وترعب من به من نساء وأطفال، ومن بعد ذلك تقتادهم إلى الهاوية أو إلى معسكرات التجويع والنقتيل والتهميش !! ..

هل هذه رجولة بالله عليك !! ..

من أجل ماذا يا ترى !، إثبات وجود مثلا !! ..

في بيتنا يهودي

لم أفهم هذا العالم بعد، بأن الخير هوخير مثبت لأهله
ولمناصريه عندما يتخذوه سبيلا، لا مكان للشر مهما تمادى
وكبر حجمه وكثر نهيق من يطوف به، فالخير ليس بالكثرة
والشر ليس بالقوة، والحق نور والباطل ظلم وظلام ..
ولكن الظلام هنا يخنق الهواء بحد ذاته، يخنقني ويسحقني
ويجعلني رمادا ..

هي الأغبرة مجموعة من رماد الصمت، تتراكم إن خف النسيم
من حولها، ترتفع وتعلو وتتبع وتغرق وت، غرق كل من كان
حولها وبها، هذا ما جرى لهذه القطعة من الصمت .

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

ها هي تنزل ..

وها هو قلبي يهطل كالمطر، يخشى ملامسة الأرض، كأنني أنا الأرض وهي المطر، نلوث بعضنا البعض، تشبه في خطواتها زحف أمي، إلا أن أمي أثنخ منها بكثير، هل وقع الحب بين أبي وأمي أم أن الله هو الذي جمع بينهما في أحد المعابد !! ..

إنها تتقدم وأنا يتأخر الأكسجين في دخوله إلى صدري، ها هي تبحث عن شيء أنا لا أعرفه، أتمنى أن تجده وترحل بسرعة، لا خوفا عليّ بل خوفا عليها كي لا ترعب الأطفال المسكين الذين ينشدون للموت والرعب ولا يعرفونه، بدأت تفتش هنا وهناك وفي الأكياس، كأن هذا البيت ليس لها، لعلها أتت كي تكتشف المكان، أوتبحث عن ألعاب لأولادها، الأطفال يشاهدون أمهم من النوافذ الصغيرة الخارجية للقبو، عيونهم تسمرت نحو أمهم، وقفت أمام لوحة الحاخام تتأمله جيدا، رأيت في عيونها بريق الحزن والأسى، تفتش عن بقاياها في لوحة لا تعرف من يكون، تريد أن تكون نفسها أمام قداسته، أسمعها ترتل نصوصا من التوراة ..

يا إلهي !! .. ماذا يجري ؟

هل هذه المرأة يهودية، وإذا كانت كذلك ما الذي أحضرها إلى مدينة كل من بها قلوبهم نار وحرارة على عرق معين لم يفعل

في بيتنا يهودي

لهم شيئاً، إنها القوى الكبرى التي تتحكم في عقول الناس ووطنيتهم، حتى أن تؤمن بالوطنية فعليك في البداية أن تضمر الكره لهذا العرق بالتحديد لتكون كامل الإيمان بوطنيتك ..

إنها وطنية ملوثة بالدم الحرام الذي أمرهم أن يسفكوا ويحرقوا ويسرقوا وينهبوا أموال غيرهم، ألسنا نحن منكم وأنتم منا !!، ما الذي جرى ! .

الذي جرى بأننا مستهدفون بأسماء عدة، فقط لأننا نحب أن نعيش بعيداً عن الآخرين، ليس خوفاً من الآخرين بل خشية من أن تتلوث قلوبنا بخبث هذا العالم القذر ..

تبقى تلك المرأة التي أوقعت بي الحيرة واقفة منتصبة أمام الرجل الذي أشبع هذه المدينة حبا، رأيت مکتوب خلف هذه اللوحة اسماً لأحد أحفاده، عرفت بعدها لمن هذا المنزل، وعاودت المرأة البحث عن شيء لا أعرفه، قلبي لم يعد يتحمل تلك المحنة التي تلقى بي، قالوا لنا بأن خلف كل محنة منحة ..

متى المنحة يا ترى !! ..

بعد أن نكون وجبة دسمة للديان وللماضي الملوث بدماء المساكين !، من الذي سوف يجني كل هذا الدمار !، أليس قطاع الطرق من السياسيين والإقطاعيين ومناققين المنابر الذين يدعون إلى الوطنية !! ..

والحل يا ترى ؟

الحل أن ترحل هذه المرأة قبل أن يفتضح أمري، أخشى أن تصرخ ليس خوفا مني أو خوفا على نفسي، بل خشية على مشاعر أطفال مهنتهم في هذا السن كتابة كل صغيرة وكبيرة في الذاكرة ..

لقد اقتربت إليّ، خطوات تفصلني عنها وسانتي مترات من الرعب، روعي تتدحرج كجمجمة قد تهاوت من أحد فرسان المعارك الضاربة بالسيوف المسنونة، أغمض عيني كما كنت أفعل في الصغر، تلك العادة التي ورثها مني ابن أخي الصغير، هذه العادة التي يظن صاحبها بأنه سوف ينجو من حتفه الأخير !!

..

إنه حتفي الأخير على ما أظن ..

ولكنه اليقين المغطس بالسّم ..

إنها وصلت إليّ، ارتطمت عيني بعينها، لم تتمسر أبداً، فيها بداهة لم أرها على وجه أحد قط، أدارت ظهرها كأنها لم تر أحد، صرخت بأولادها أن أدخلوا إلى الداخل، رفضت ابنتها الدخول :

- إنه ليس وقت الجلوس في المنزل !! ..

كانت الأم غاضبة جدا :

في بيتنا يهودي

- حسنا إذا لا تريدون الدخول اذهبوا إلى حديقة المنزل والعبوا هناك، أن لا أرى شيئا من وقوفكم على النوافذ، سوف أجد لكم ألعابا جميلة، هيا من هنا ..

زالت الرؤوس المكتظة من النوافذ، كأن غربان وابتعدت عن النوافذ رأيت ألسنة من الشمس قد وصلت إليّ، شعرت بأنها خبأتني من تطفل الأطفال، شعرت بأن لديها حديث تريد أن تحدثني إياه، تشبه أختي الكبرى التي لا أعرف ما حل بها، أدارت ظهرها :

- منذ متى وأنت متخفي هنا !! ..

- منذ ليلة أمس ..

- هل رآك أحد وأنت تدخل إلى هنا ! ..

- لا أبدا ..

- حسنا، هل أنت جائع !..

- نعم كثيرا وأشعر بالعطش ..

كان حلقي متصحرا من الخوف، لم أعرف كيف نزلت السكينة على قلبها، ولماذا لم تصرخ وتحضر لي الجنود الذين يقطعون الشوارع نهيقا وجعارا :

في بيتنا يهودي

- حسنا أنا سوف أحضر لك طعاما وشرابا، واحذر أن تصدر صوتا هنا، وخصوصا في وجود الأطفال، لا أريد أن يفتضح أمرك ..

أدارت ظهرها تريد أن تلمّ بالصعود إلى الأعلى، ولكنها التفت إليّ :

- اسمع ! .

- ماذا!؟

- أنا لست صاحبة هذا البيت، أتمنى إن كان هناك ألعاب أن تساعدني في إيجادها كي أخرس صوت الأولاد ..

حسنا في حال عودتك سوف أجد لك إياها لا تقلقي ..

صعدت وروحي لا زالت ترفرف خوفا، ألمت بي الشكوك والظنون، وقلت في كينونة نفسي بأنها سوف تحضر لي تلك الكثبان التي ترتدي أثوابا عسكرية كي يلقوا القبض عليّ أويقتلوني، أولعلها سوف تحضر السلاح كي تنتهي مني فالجميع هنا مسلح وحتى الفتية الذين وصلت أعمارهم خمسة عشر عاما قد زرعوا في أدمغتهم إذا وجدتم يهوديا عليكم أن تتخلصوا منه، فهذا واجب وطني وقومي، أولعلها سوف تهرب مع أبنائها كي لا تلوث يدها بي !! ..

العلل كثيرة وجمة ..

في بيتنا يهودي

ولكن الذي هدأ روعي هي الوقفة التي وقفتها أمام صورة
الحاخام، وتلك النصوص التي رتلتها على مسامعي، أيعقل أن
تكون من السلالة اليهودية!، وقد تنكرت خوفا على نفسها
وأطفالها من الموت، وإن كان كذلك لماذا الأطفال ينشدون
بالموت لليهود !! ..

أمر محير يضع العقل في الكف، أسئلة لا بد أن أعرفها، خوفا
عليها هي لا أنا، أنا ربما أستسلم في أية لحظة، حبا بالموت
كرها للحياة انصياعا لأوامر القدر والقضاء ..
ما أكثر شماعات المؤمنين، وخصوصا عندما يتوقف العقل
وتتعطل موارده حبا بالعبودية، تبا للعبودية ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

أن تفتش على أشياء ليست لك هذه تعد سرقة ..
أنت تسرق الذاكرة، تسرق أشياء هي لأطفال كانوا بالأمس هنا،
أطفال هم منك وفيك ومن لحمك ودمك ..
إنه ليس دمك عندما تعطي وتسلم الذاكرة لأشباح وجدوا من أجل
اقتلاع أجمل فرحتك ..

فرحتك الآن أنها أعطتك الأمان ..

فرحتها ليست فيك بل لأنها جزء من دمك المراق المحلل
السفك، ستجد ما في نفسك وغيرك لأنها وجدتك في كومة من
الخراب ونفايات البشرية التي وعدتك إن وجدتك أن تجعل من
عظمك سمادا للحقل ..

تقوم لتبحث عن لعب هي بالأصل ليست لك ولا لهم، إنها
لأطفال يشبهون طفولتك، ملامح تشي بأن بها الخير الكبير،
أكياس مكومة من الماضي فيها أجمل ما كسته الذاكرة، وأنت
تبحث عن الذاكرة تواجهها بكل ألم، كأن هذه الأكياس هي
أكياس أهلك، ولأن هذه الأشياء هي أشياء أطفال وأبناء
إخوانك وأخواتك، فمهما هربت من أياد النازيين فلن تستطيع أن
تهرب من ألم الذاكرة وأشيانها المنهوبة ..

في فكرهم أنت وممتلكاتك هي لهم، شرعها لهم قانونهم الوطني
الذي ابتدعوه، ولكن تنجمن بدعة عليك بإيجاد بديل لها، بدعة

في بيتنا يهودي

أخرى على مفاص بحثك عن ألعاب غيرك وطفولتهم المسروقة، هل تأكدت بأن هذه الذاكرة مسروقة ومنهوبة بأيادي غيرك !! .. أنت الآن تتأكد بأن هذه الأكياس تحتوي على ألعاب !، تأكد يا فتى من فوهة الأكياس والضباب والعنمة، تلاحقك أصوات بنات إخوانك :

نوعام، وتمار، وشيرا، ومايا، وياغيل ..

إنها ياغيل الذكية الفطنة ابنة الثمان أعوام، ما من أحد سألها عن اسمها إلا وأجابته بالطبيبة ياغيل، إذا فقد أثرها ساعة من الساعات تجدها في أسطبل الحديقة قد أمسكت فأرا أو حشرة أوقطة أو صوصا، وربطته جيدا كي لا يفلت ..

أفلتت الذاكرة منك عندما سقط من الكيس لعبة مخاطة يدويا تشبه تلك اللعبة التي كانت بيد ياغيل، كانت تتلذذ بلون الدماء، تشق بطن الصوص وترى ما يخبئ بطنه من أمعاء وطحال وقلب، تمسك به بعد أن يفارق الروح وتبدأ تسلخ الجلد عن اللحم، كانت طفلة مخيفة بعض الشيء، ولكن أبي عرف هذا الشيء عنها متأخرا، حيث تحدث مع أمها :

- متى اكتشفت هذه الحالة ! ..

في بيتنا يهودي

- دائما تمسك الحشرات وتقتلها، ولكن لم أكن أعلم بأنها تقتل الحيوانات التي هي اكبر حجما من الحشرات إلا بعد أن شاهدت الدماء على فستانها الجديد الذي اشتريته لها في الصيف !! ..
- وماذا حدث بعد ذلك؟! ..

- لم أوبخها أبدا، وإنما بدأت أفتش عن طرف الخيط الذي يجعلها تأتي كل يوم وثيابها ملطخة بالدماء، حتى راقبناها بعد العصر ووجدنا بأنها تلقي القبض على صيصان الدجاج وتقوم بتشريحها !! ..

- هل وجهتموها؟

- لا أبدا، كان لا بد أن نخبرك فأنت أكبرنا مقاما وحكمة ..

- على ما أظن بأنني آخر من يعلم!

- كان لا بد أن نخبرك من البداية ولكن أردنا أن نتأكد قبل أن نأتي إليك من غير أية دليل ومحاطين بالظنون والشكوك، فتأكدنا وأتيناك ..

ضحك أبي يومها، ولكأن هذا المشهد أمامي أراه ويرانى، يمر على سراب نظراتي وأمر به، ويمرر كفه على رأس ذاكرتي ويقول : هل تذكرت؟! ..

أمر أن يأتوا إليه بياعيل، ثمان أعوام والطفلة دموية يخشى منها، كانت تمشي على الأرض بكعبها المدبب تطرق خشب

في بيتنا يهودي

الأرضية بكل قوة، ولكأن المجرة تدور حسب فلك قوتها، شامخة بشخصيتها المستفزة، لا تنظر إلا في وجهتها، لا تستهويها ألعاب الصغار لأنها تظن بأنها فاقتهم سنا وشموخا، وما إن وصلت أعتاب مكتب أبي حتى طرقت الباب ثلاث طرقات متتالية، بين كل طريقة وطريقة تكمن هناك أصوات رعب تهجو وتهجم على القلب :

- أدخل ..

تفتح الباب ويسمع لصوت الباب أزيز يكاد يخلع أقفال الروح، تسير نحو المكتب الذي يجلس عليه أبي حيث يدير ظهره لها من باب أنه ليس مهتم لأمرها :

- مرحبا ..

يلتفت أبي إليها، كأنها قطف من عنب بري حلوا الكمال والجمال والمذاق، ترتدي فستانها البرتقالي، صيفية قمحية محلاه بالعسل ولكأنها صلبة لا تبسم للمرأة :

- مرحبا بنيتي ..

- عفوا جدي، لقد طلبت بأمرى !! ..

- نعم يا بنيتي هذا صحيح ..

- هل أستطيع أن أعرف ما هو هذا الأمر المهم؟

في بيتنا يهودي

ضحك أبي على جرأتها وقوتها وطريقتها التي تشبه طريقة الكبار في المعاملة :

- نعم بنيتي، لقد اشتقت لك كثيرا، وأردت أن نتحدث ونجلس معا وأرى كيف هي أمور دراستك ومستقبلك !!

- هل ترى يا جدي بأن هذا الأمر غريب !!

- ما الغرابة في ذلك يا بنيتي !؟

- الغريب بأنك أول مرة تستدعيني من أجل دراستي، أشعر بأن هناك أمر ما أحضرتني إليه ..

- تعالي بنيتي إليّ ..

تقدمت إلى أبي كانت تسير ويسير فوق رأسها غرابة مخيفة حتى وصلت إليه، رفعها إليه وأجلسها على فخذه، وبدأ يمرر كفه الثخين على شعرها الأشقر :

- بنيتي الصغيرة، لقد سمعت بأن هناك في جزيرة ما يوجد عائلة تعيش وحدها، وكان كلما تلد الأم طفلا ويكبر قليلا يأتي ذاك الذئب وينقض على الطفل ويأكله ويرميه، ولم يجدوا حلا لهذا الذئب، في نظرك ماذا سوف يفعلون به !

حكى رأسها تريد أن تفكر وتجد حلا لجدها :

- أقتلوه ..

في بيتنا يهودي

- ولكن يا بنيتي إنه الذئب الوحيد في تلك الجزيرة، وهو الحيوان الوحيد الذي يمكنه أن يقضي على الفئران التي تلتهم محاصيلهم، وإن قتلوه فسوف يقتلهم الجوع ولن ينجح مشروع الزراعة الذي لا يملكون إلا غيره ..
- إنه أمر محير يا جدي ..
- كلا يا بنيتي، ممكن أن نتفق مع الذئب أن محصولنا بيننا وبينك ولكن بشرط أن لا تقترب إلى أولادنا ..

في بيتنا يهودي

يا عيل ..

كانت أذكى من جدّها، أذكى من أي فتى آخر في هذا المنزل الذي يتلاطم بالأطفال الأذكياء، أذكى من الذكاء بحد ذاته، لم تعجبها قصة الذئب فراحت تفكر ماذا يريد جدّها منها :

- ولكن يا جدي ما هو الرابط بين دراستي وقصة الذئب !!

ضحك أبي لشجاعتها وذكائها :

- أنت الذئب يا جدي ..

احمر وجهها غضبا ولكن لم تظهر هذا الغضب أمام أبي لأنها تحبه أكثر من أن تبغضه لموقف ما :

- شكرا جدي ..

أرادت أن تنزل من حضنه، شعر أبي بأنه أغضبها، ولكنها كانت تريد الرحيل لأنها شعرت بأنها جرحت، سوف يرمم أبي ذاك الخدش الصغير لأنه يعلم بأنها حساسة جدا :

- بنيّتي لا تغضبي مني ..

- أنا لم أغضب يا جدي، ولكن أن تصفني بالذئب فهذا أمر مزعج حتى لو كان مزاحا ..

كانت تهم بالخروج، ولكن أبي يريد أن يشرح لها رغم متانة رأسها الصلب المتحجر :

في بيتنا يهودي

- بنيتي قبل أن تخرجي، وتعلنني الخروج من غير إذن مني هذا أمر لا يليق بفتاة تريد أن تكون طبيبة في المستقبل، أريد أن أخبرك بشيء ..

ولكنها أجابت بسؤاله بسؤال آخر :

- وكيف عرفت بأنني سأكون طبيبة!؟

- عيونك تقول ذلك، وأنا أريد أن أفتح لك عيادة خاصة بك وأنا أعدك بذلك، ولكن !! ..

- ولكن ماذا!؟

- ولكن هل تعرفين من كان بالأمس عندي هنا في مكتبي!؟

- لا أعرف ! ..

- كان هناك جمع غفير من الدجاجات وعلى رأسهم الديك الذي كان يبكي ..

نخزها قلبها الذي عرف بأنها مذنبية، كسرت رأسها وخفضت ملامح وجهها تريد أن تهرب من نظرات أبي :

- أكمل يا جدي، وماذا أيضا ..

- لقد تكلم كبير الدجاج والسيد الديك بين كومة من الدموع المنكوبات بأن هنا في هذا المنزل يوجد فتاة تدعى ياعيل تأتي كل يوم عصرا وتقتحم الكوخ وتأخذ صوصا وتذبحه، فلم نعد نصبر، فربما في المرة القادمة سوف يكون دورها في الذبح،

في بيتنا يهودي

وأأن تضع لها حداء، أوسنقطع عنكم البيض ولن تستطيعوا أن
تأكلوا البيض بعد اليوم ..

- أنا آسفة يا جدي، فعلا أنا الذئب ..

- ارفعي رأسك عزيزتي، لا تقلقي أبدا يجب أن نتعلم من الحياة
دروسا كي لا نؤذي الآخرين، فكما أنت تتلقين الأذى أيضا بقية
الحيوانات تتلقى الأذى ..

- والآن ماذا سوف أفعل، هل سأعتذر للدجاج !! ..

- كلا بنيتي لا تعتذري، أنا اعتذرت عنك، الآن سوف أفتح لك
عيادة وتقومين بتشريح ألعاب الأطفال فهذا شيء أفضل وعندما
تكبرين سوف تتعلمي ماذا يوجد في أحشاء الإنسان فنحن بأمس
الحاجة لطبيبة ذكية وعبقرية مثلك يا بنيتي، لا تقتلي حلمك من
أول خطأ، بل اجعلي الأخطاء مجرد دروس لك في المستقبل،
ولا نريد أن ندمر الآخرين بحجة التعليم، لأن العلم ليس مؤذي
أبيدا، المؤذي من يريد أن يقتل ويسفك على حساب العقل
والعلم..

انصرفت يا عيل ولم يتوقف أبي بإحضار اللعب لها، ولم تتوقف
هي أيضا بإتلاف اللعب وتمزيقها، حتى رأيت دمها مسفوك على
السلم الذي يأخذ بنا إلى سطح المنزل برصاصة على رأسها

في بيتنا يهودي

تماما، هل يعاقب الله الأطفال من أجل جرم هم لم يدركوه بعد!،
أيعقل أن تكون هذه لعنة!، أم يا ترى إنها مزحة قدر ..
بينما كنت أمزح مع الأكياس الكبيرة وجدت كيسا يكاد أن ينشق
بالألعباب بل يكاد أن يتفجر، ابتسمت كأن هذه الألعباب هي كأني
وجدتها لنفسي، صرخت في قعر قلبي : مرحى ..
فتح باب العلية مرة أخرى، تدهرجت بين الأكياس العملاقة لكي
لا يرى لي أثر، خشيت أن يكون أحد الأطفال المشاغبين، لم
أنتبه أنها هي :

- الو.. هل أنت هنا!؟

رفعت وجهي قليلا كي أرى ما يهبط من سلم العلية، إنها هي
فعلا، تحمل الخبز المحمص والماء والجبن، إنها هي كأني
أعرفها منذ زمن بعيد، أنثى تعبر فصول السنة كالسهم بلا أن
يلقي الصيف لها بالا، تحلق مختزقة الغيوم من غير أن يشعر
بدفئها مداخل الشتاء، كورقة شجرة في وسط الغابة لم ينتبه
الخريف أنها وقعت، هي لم تقع لأنها أحد أزهار البابونج في
شهر الربيع :

- هل تسمعني ! ..

- نعم أنا هنا ..

- هيا تعال، أحضرت لك طعاما وشرابا !!..

في بيتنا يهودي

كنت أنفض الغبار عن جاكيتي الذي صنعه لي أمي، وأرتب
هندامي الذي بحاجة إلى الغسيل، وجدائلي المنكوشة المخيفة،
أشعر برجفة تفتك في مفاصل جسدي :
- نعم أنا قادم ..

وقفت في المنتصف، ووضعت الطعام والشراب على صندوق
فارغ، كان صوت الأطفال يلعبون بصخب جنوني، وكنت أنا
المجنون لا أعرف إلى الآن لماذا هذه المرأة تساعدني :
- عفوا، هل تعرفين من أنا ! ..

- لا أبدأ، ولكن لا تستغرب لمساعدتي لك !! ..

- فعلا لماذا تساعديني !؟

- لأنني أنا واحدة منكم ..

- وأين هوزوجك !؟

- إنه أحد ضباط هذه الحرب القذرة التي تشن على اليهود !

- وهل هو يهودي !؟

- كلا، فقط أنا، كان قد تزوجنا بعد ثلاثة أعوام من الحب،
وأنجبنا أطفالا من بعد أن هربت من بيت أبي الذي رفض أن
يزوجني لرجل من غير أبناء ديني، ولكن أهلي كسروا شوكتي
عندما سمعت بأنهم سقوا إلى المحارق الكبيرة التي يجعلوا من

في بيتنا يهودي

اليهود رمادا، أنا بالفعل لا أعرف ماذا جرى معهم إلى هذه اللحظة ..

- وأولادك يعرفون أنك يهودية!؟

- لا أبدا، ولكن أخشى أن يعرفون، لأن زوجي هددني إن بحت بشيء للأولاد بأنه سوف يقضي علي ويجعلني عبدة .

- هل تعتقدين بالفعل بأن هذا حب ! ..

- إنها خدعة، وأنا أحد ضحاياها ..

- كلا أبدا أنت لست ضحية، أنت بألف نعمة ..

- وكيف ذلك!؟

- لأنك لم تخذشي بإبرة .

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

.. نعمة ..

.. كذبة ..

.. عودة ..

.. محاسبة ..

جلها أفلاك تدور في مجرة واحدة، أوروبما كواكب صغيرة ليس لها فائدة سوى الدوران، أو كعقرب لساعة يسير ويسير ولكن لا يعرف إلى أين، إنه يحصي الوقت فقط، مهمة رسمية للعقرب، تجلس مع ذاتك كثيرا كي تتساءل من الذي أطلق المسميات على الأشياء!، ولماذا أطلقوا عليه عقرب مع أن الفاصل الزمني والقواسم المشتركة بين عقرب الآلة الزمنية وعقرب البراري فرق شاسع في كل لحظة وحتى شكلا، لم أجد قاسم مشترك بين العقربين سوى السم فكلاهما يلسع ويمتص من صحتك ويردي بك طريحا معلولا مسحوبا منك الحياة بين كئيبان القبور، تلك الأرض التي أطلقنا عليها مقبرة تنتظرك وتتجسس على آخر أخبارك، كانت فيما مضى قطعة كبقية القطع الترابية، تزهو وتثمر وتنمو وتصاب بالجفاف والقحط ولكن كل شيء جميل معرض للتلوث ..

إنها عملية صعبة جدا على كوكب كان ينبع بالحياة، ولكن الحياة تضمحل شيئا فشيئا تحت رحى الإنسان الذي جعل من النعمة

في بيتنا يهودي

نقمة ونسيان، إنه ينسى أويكذب أويتناسى، وتغض الشمس والمجرات التي تدور حول بعضها وحول نفسها غباء الإنسان المصطنع، ذاك الغباء الذي جعل من الحياة زريبة له ولقاندوراته، أغبى مشهد تراه في حياتك ذاك المقر الذي يطلق به بين الفينة والفينة مؤتمرات ومحاضرات ومنتديات ولقاءات عن البيئة وحفظ حقوق الطبيعة، من المؤسف أن تجد ذاك المقر قد بني وسط حديقة من الأشجار الباسلة التي كانت تصد الرياح عن أكواخ لبني الإنسان ولكن تبا للإنسان ..

الوحش الذي تأبى السماء على فنائه لأنه المخلوق المفضل الذي سلم له مقاليد العقل والمنطق المحشوبدخان المصانع والمعامل ونفاياته التي تكثر يوما بعد يوم، المسألة لم تعد تقيد بالنفايات حتى تطورت تلك المعامل العملاقة التي تتوسط الغابات، فوهات ضخمة تكاد تتفجر من الأدخنة التي تتأجج منها ثاني أكسيد الكربون وسموم لا تعد ولا تحصى، إنها في الحقيقة تحصى عندما نحصي السلالة التي ينحدر منها قرود الشمبانزي، عندما ترى الغابات الملوثة بالقرود وترى أفعالها سوف تتأكد تماما بأن بينها وبين الإنسان صلة قرابة بالفساد والحركة الزائدة التي أثرت على هذا الكوكب سلبا وجعلت منه جحيما يغلي، فتارة

في بيتنا يهودي

يهدد وتارة يمدد وتارة يقذف وتارة يغلي وتارة يزلزل وتارة
ينفث إحصارا وتارة يغرق ..

إنها التارات المصحوبة بالثأر ..

ثأر الطبيعة على بني الإنسان، والطبيعة إذا غضبت فإنها تعمى
تماما ولا ترحم أحدا، تماما كالمشهد الذي يصنعه الإنسان لأخيه
الإنسان بحجج واهية كاذبة مخادعة مبينة على المكر والمكابرة
والهمجية والإجرام ..

تصفية حسابات ملوثة بدماء الكراهية، شيء غريب يجعلك لا
تحس به بتاتا أن تأتي من نسل هومن نسلك وتقضي من ذات
النسل الذي أتيت منه، تشعر بأنك ومن سلالة العناكب التي
تتزوج وتبني بيتا وهما وتأتي بالبيض ومن ثم تولد وعندما
يجوع الأولاد يأكلون جسد أمهم العنكبوت، سؤال يقتلك حيرة
وغرابة، أيّ جنون هذا الجنون يا ترى !! ..

لا يمكن للكلمات أن تأتي عبثا ..

لا يمكن للمكان أن لا يتكون في سؤال متكرر ومتكور كدوران
هذه الأرض التي تدور بلا فائدة، وبالعكس تماما فكلما دارت
وتكورت وتدرجت وكلما زاد فيها الفساد ..

إن هذه اللحظة التي أجلس بها مقابل عينة واضحة من الإناث
المخدوعات بالحب والعشق لترى نفسها أنها ضحية ربما

في بيتنا يهودي

ستتضح وتؤكل للديدان أوربما لن تلحق الديدان أبدا، إذا ماذا ستلحق يا ترى !! ..

النيران التي تبتلع آلاف اليهود المساكين بحجة التطهير العرقي، إنه أمر محال، لأن أبناء يعقوب منتشرين في كل أصقاع الأرض وإن أردتم دفنهم يوما فالتاريخ له مهمة الكتابة فلن يجف قلمه في تجفيف الدماء التي أزهقتموها، مجرمون بامتياز، الامتياز الأعظم الذي جمعني هنا تحت سرداب الظلام بأنثى تقف بين نار الانتماء ونار الانسلاخ من نكتلها لحريتها العرقية والدينية ..

كان الخبز والجبن شهيا جدا، كنت أكله بشره، إنها أول مرة لا أمتثل لضوابط الطعام قوانين المائدة التي تعبت أُمي معنا وهي تعلمنا كيف الجلوس على المائدة وكيف البدء والانهاء من أكل الأطباق ..

إنه ليس طبق وإنما صحيفة تتبع من برلين فيها حبر نازي ودماء مظلمة وخبز معجون بأيادي قاتلينا، نحن نقطة النهاية الأبدية على سطور الجوع والنهب والقتل والتشريد، لا ضوء يقينا من راجمات الذباب المنتشرة عبر حصباء هذه القارة الشقراء، تنكر ذاتك عندما تنسب إليها وهي تخوض فينا فنون السلخ والذبح، ننكر كل ما بنا وانتماءنا إلى الله وهو الذي ينظر

في بيتنا يهودي

إلينا وينكرنا بعد أن عبدناه طيلة هذه السنين، سؤال أرفعه إليه الذي كنا نرفع إليه قرابين الخبز واللحم وتراتيل التوراة كي يعم علينا بالحب والسلام :

هل هذا هو الحب والسلام الذي كنا نرجوه؟! ..

طبعاً لن تنتظر الجواب وأنت تلاحق ويلقى القبض عليك وتلقى في مأوى لا يقبل أن يعيش به حيوان، ولأنك في نظر غيرك أنت أدنى مقاما من الحيوان، فسيتدحرج من قلبك سؤال آخر :
كم من عنق وكم من روح وكم من جمجمة تريد أن تسحب وتفصل وتقص وتخرق كي تكون راضيا !! ..

أنت وقلبك الذي فاض طهراً وإيماناً به وبوحدانيته ستتخلى من جل ما كنت تؤمن به فقط لأنك لم تفعل شيئاً، والشيء الأعظم الذي هز وجدانك بأن تلك الأكف الصغيرة التي ردمت في التراب فقط لأنها من سلالة التطهير العرقي ما ذنبها كي يفعل بها هذا الشيء!! ..

- هل شبعت؟! ..

- كلا لم أشبع ..

- معقول لم تشبع؟

- لن أشبع حتى أرى أبي وأمي!! ..

- هل تريد أن تخرج وسط هذا الإجرام الذي يحيط بنا ..

في بيتنا يهودي

- هل تقصدي أنك أنت أيضا أحد أبناء جلدتنا ! ..

- نعم وهل تنكر ذلك ؟

- كلا بل شيء محير فعلا أن تكوني شيئا وتعودي شيئا آخر .
- ماذا عساي أن أفعل، ولكن أنا الآن أشعر بالسعادة لأنني
بإمكاني أن أفعل شيئا من أجل أبناء جلدتي، سوف أفعل كل ما
بوسعي كي أنقذك، ولكن أتمنى أن لا تعاملني كتلك الفتاة المذبذبة
التي خرجت عن دائرة أهلها ..

- كيف ستنتقذيني !..

- لا تسأل عن الكيف أوالكم، ولكن دع الأمر ..

- وزوجك ؟

- ما به زوجي !؟

في بيتنا يهودي

- لا عليك منه، أنا سأتولى أمره ..

أدارت ظهرها لي وأخذت همها تحت إبطها وذهبت، كانت شاحبة فعلا، محاطة بالرعب، كنت أتساءل هل حقا هي خائفة على نفسها أم عليّ أنا أم على أن يفتضح أمرها بين أولادها !!...
أنثى بسن الموت وعياناها في مكتمل الربيع، يسحبها الشتاء كي يخلصها من اصفرار الخريف، وتمطر ألما وتبكي ندما على ما فعلته بحق نفسها وحق غيرها ..

كان صوت الأطفال كصوت الرصاص الحي الذي يخترق كل حي، إنهم أطفال الألم والأمل الذين أتوا لكي يأتوا بالنور، ولكن حشيت قلوبهم نارا وبارودا وقسوة على هذه البشرية، أطفال بسن الكارثة الجغرافية ظلمتهم لأنها قسمتهم على غير عاداتها، فالعادة هنا أن تلك العصافير تليق بكوكب يدعى الجنة لا جهنم، قارة كل من فيها يتلظى نارا موقدة، الكل يجمع في قلبه حطام انتقام من الكل ..

أحلام مبنية على الانتقام، وأحمال محمولة إلى الموت، والسائق الوحيد الذي لا يخطأ الهدف هو الرصاص، إنه الذي يخترق الأحشاء، لا يوجد من يحاسبه على انتزاع الأرواح، لأنك في زمن لا يعترف بك سوى حشرة، بل الحشرة هي اقرب لهم منك

في بيتنا يهودي

لأنك أنت لست منهم، وهم ليس منك، أنت من فصيلة القروء
وهم من فصيلة الغزلان البرية، إذا إلى أين المفر ! ..
لا مفر أبدا وأنت تراقب أنثى تخشى أن يلقي عليك القبض، الآن
أنت لست وحدك في محك الموت، بل أنت وهي ..
الساعة بتوقيت خروج الموتى بعد منتصف الليل، هدا صوت
الأطفال وخذلوا إلى النوم، والنوم أناخ فتيل رأسي وهوي فكر
بنفسه وبغيره، يفتح باب العلية فيسقط قلبي من الخوف لأنني
أعيش بتوقيت الخوف لا بتوقيت الأمان، توقيت يبيعك ويبيع
ماضيك بلحظة وأنت تضحك وتبكي في آن واحد ..
تهبط أنثى الخوف وفي أحشائها يتلثم الكلام، تتصبب عرقا من
أجواء التكم، وأتصبب رعبا من العتمة التالية في الليلة الثانية،
إنها ليلة السبت على تقديري القمري ..
هل سأحتفل بالرب لأنه قسم لي كسرة من خوف !؟؟
سأحتفل بالسبت لأنه أنجاني بأنثى من بني جلدتي ولكن جلدتي
تأبى أن تتقبلها، ولكنها صفة إنكار :
- هل أنت جائع ..
لا أعلم لما أرتجف، أيعقل أنه جوع !، أم ما الذي يحدث يا
تري!؟ :
- لا أعلم ما بي ..

في بيتنا يهودي

وضعت رأسها وهي مصابة بالدهشة، دهشة من كوكب الأمومة التي أعرفها، إنني فعلا أعرف هذا الكف إذا هبط على رأسي، ككف أمي تماما، كخوفها من الموت والمرض والنزلات البردية، تدس جيدا تغلب كفها كي تتأكد :

- آه يا إلهي ما هذا! ..

- ماذا حصل!؟

- أنت مصاب بالحمى، إن حرارتك مرتفعة جدا ويجب أن آتي لك بالدواء والمشروبات الساخنة والكمادات الثلجية وإلا سوف تحدث مصيبة، ولكن أنا متعجبة بأنك لم تشعر بالمرض !! ..

- أنت ماذا تعملين في الحياة!؟

جلست جانبا على أحد الأكياس المحشوة بالثياب، وأخذت نفسا عميقا محشوا بالتعب وصمتت قليلا :

- من متى وأنت تتعرق؟

- لم تحببيني على سؤالي!؟

- أنا طبيبة عامة ..

صدمت عند سماعها، تغشنتني خنقه كدت أن أصرخ بها :

- ولماذا لا تعملين في مهمة الطب؟

- زوجي يخشى علي من أن يعرف أحد بأنني يهودية فيحتجزونني ولا يعد يستطيع أن يفعل شيئا ..

في بيتنا يهودي

- إنه فعلا يحبك ..
- إنه يحب أولاده، لا يريد أن يتكرر السيناريو الذي عاشه من غير أم فهو يقدر الأمومة، لا يريد لأولاده أن يعيشوا من بعيدا عن أم تحتويهم ..
- هل هذا ظنك فيه، أم أنها قناعة !..
- كادت أن تقوم من مكانها ولكنها متعبة ومجهددة وشاحبة من تربية الأطفال، فلا تكاد تتوقف عن الحديث مع هذا وهذا من أطفالها، كأنها أختا لهم أو صديقة لبراءتهم :
- يجب أن أحضر لك الدواء والمشروبات الساخنة، ولكن هل لديك ما ترتديه وتبدل ثيابك ! ..
- ها ها ها !!! ..
- لماذا تضحك !؟
- كيف لي أن أحضر ثيابي ومن الخوف كانت الثياب التي أرديها سوف تتبرأ مني عندما هربت من بطش النازيين !! ..
- عفوا لقد نسيت !! ..
- لا يجب عليك أن تنسي فأنا وأنت جزء من أجرام هذا التاريخ، ولكن أنا كلي غرابة بشأنك كيف لقلبك أن ينسى !؟
- ربما لم أر أفراد عائلتي يساقون إلى الموت كما أسمع من هنا وهناك، هذا شيء قاسي فعلا أن أعيش في دوامة تطحن أرواح

في بيتنا يهودي

من كنت الآن موجودة بسببهم يساقون إلى الموت عنوة ورغما
عن أنوفهم ..

تركت لي المساحة الفارغة وأسرعت لتحضر الدواء والماء
الساخن، كأنها أمي وأختي أو أحد نساء العائلة تخاف عليّ من
أن أصاب بالموت وأنا غارق به حتى الثمالة ..

أنا الثمالة بحد ذاتها، لأن الذات هنا مهددة بالفناء بلحظة أو بطلقة
أوبحرقة أو بشرطة، فلسفة المطاردة تستفزك لأنك أنت أحد
أبطالها المهددين بالانقراض، تبا لقاعدة الفناء المحيرة التي
يجلس الإنسان أمام نفسه ساعات وساعات يراقب العد التنازلي
لاختفائه، وما أن تقف على محور الصوت للصوت الأزلي الذي
تريد أن تكتشف به سر تلك الماهية حتى يفتح باب العلية مرة
أخرى، أنت هنا مرة أخرى تخرج ماضيك لها، تريد أن يبقى لك
أثر كي لا تجف ولا تضمحل في كوب دم كقطعة سكر، ومن
قال لك بأنك سكر يا ملح يعقوب ! :

- آسفة تأخرت عليك، ولكن بصراحة أن متعجبة منك، كيف لك
بكل هذا الصبر ..

- لا أبدا لا عليك .. الصبر صفة متلازمة للإنسان يقسمها الله
على كل طاقة التي تتحمل الوجع، ربما لديك وجع أنا لا أتحملة،
وربما لدي وجع أنا لا أتحملة ..

في بيتنا يهودي

- أيعقل أن الله يريد لنا الوجد ! ..
- نعم يعقل كل شيء، ولكن يجب أن نبحت عن مخرج لله كي لا نوكل له الظلم ونحن في قمة الظلم، فقط نحتاج إلى صمت أفواهنا، وتشغيل عقولنا، وسيجري كل شيء على ما يرام ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

الأرزاق صفة يحسبها الإنسان طعاما أو شرابا أو مالا ..
لا يا حبيبي ..

الحزن والسعادة، الحب والبغض، السلم والحرب، الأمان والرعب، النوم واليقظة، البقاء والفناء، السفر والاستقرار، يا صديقي كلها أرزاق، تقسم على أهلها كي يرى الله كم تتحمل .. كنت أبحث في قاموس المنطق هل الله يريد فعلا أن يختبرنا !، لطالما الله يريد الاختبار إذا هو يعرف كل شيء، بل يعرف ما جرى وما سيجري، يمتلك كل شيء، لعله نفث في هذا الإنسان ماهية الخيرة التي استخرجها من عظمته كي يرى خيرته في خيرة خلقه من مخلوقات كما يظن الإنسان ..

الإنسان كأداة ذات حدين تجرح وتحمي، تقتل وتلصق، تميت وتحيي، وهلم جرا، إن الذي جرّ القلم إلى أن يغوص في ذاك المخلوق الغريب الأطوار، الذي يتكاثر جنسيا ويتغير ويتبدل طبائعا وجينيا، ويتقلب ويتبدل ويكره ويحب ويعشق ويحارب، هو الفضول، أو بلغة أصح هي الحشرية ..

أنا كفرد من هذه الأفراد ذات الأنوف المتعددة الأشكال، تلك الأنوف التي أراها كل لحظة تحشر ذاتها في ما لا يعينها، التدخل المقيت النابع ربما عن حب أو عن بغض، إنها الفلسفة التي لا بد أن تنتهي لتعيش تلك القطعان المتناحرة بالسلام، وهنا

في بيتنا يهودي

على أرض العيون الملونة والشعور الشقراء والجلود الحمراء
المنمشة تتكاثر تلك المخلوقات على حب القتل وسفك الدماء كي
يحضوا بالبقاء على قيد جمالهم، لم يفتحوا قبور آبائهم يوماً من
الأيام أبداً ..

التوابيت الحجرية والخشبية المزركشة المنقوشة بأحرف الرب
تحت الأتربة وأوراق الشجر المتعفنة، رخام مختلف الأشكال،
هندسة في التصميم وأبعاد لرؤية الموت بشكل مؤثث وأنيق،
ولكن ما تحت الأرض أجمل وأجمل حيث الظلم والظلام ورحلة
الغياب والسير في عتمة الدرب وحيدا وحيدا، أنت لا تسير أبداً
بل تزحف على قوافي الموت زحفا نحو الهاوية، هناك أنا وأنت
مصدر اللون الأسود حيث لا شمعة ولا نار ولا ضوء ولا
هواء، لا يكفي خنقة الموت بل فوق الموت موت آخر، هناك
جدك الأشقر ذات العيون الزرقاء المشتعلة بدمه ودمك، ولكن
كي تبقى دمك هو الأصل عليك أن تقتل كل من حولك، ولكن من
أجل ماذا؟! ..

من أجل أن تبقى أنت وحدك ..

لن تبقى وحدك أنا متأكد، هناك من سيأتي ليتسلى معك كالدود
والحشرات والرائحة العفنة التي تصدر من ثقب مساماتك

في بيتنا يهودي

المسدودة بكرهك لغيرك، اكره من تشاء وأحب من تشاء فإنك مفارق ..

المعادلات المبنية على الأنانية، الحروب التي خضتها بسيفك المنهوب، الأوسمة البراقة ذات الأعلام الخلبية، الشهادات المطوية على جدران الفخر المتشقق، مواهبك وأحلامك وعشقتك للحياة وبغضك لنا ..

سيفنى في سبعة أشهر وأنت في ضيافة التوابيت الخشبية المطرزة بالشموع والدموع والورود الحمراء، تلك الورود التي وضعت على رخام بطولاتك، إنها تقاضيك الآن، إنها ورود حمراء تميل إلى خمرة الخريف، كدماء غزالة مطاردة من ثلاثة أسود في براري حريتي، إنها مشاهد القتل التي عثتها فينا، إنها دماءنا التي غرقت بها في محيط أسمائنا، تتساءل الأسطورة نافثة في خضم ضجيج مدافعكم كم من اسم محوتم ! .. وكم من عنق جززتم ! .. وكم من روح أزهقتم !! .. وكم من عائلة سجنتم ومنعتم عنها الماء والدواء حتى الموت ..

بينما أنت تجلس في عتمة القبو المسلوب من عائلة تشاطرك دما وحبا وعقيدة، كان المشهد في الضفة الثانية من الموت قهرا يجالس الغياب، إنها أمك التي جردت من كافة ثيابها كبقية النساء اليهوديات المحتجزات في معسكرات الموت، مجردة من اللون

في بيتنا يهودي

والصوت والصورة ترتجف تماما كما ترتجف أنت، إنها تتعرق من المرض الذي زحف إلى عروقه المتورمة من البرد القارص وسوط الظلم الذي لحق بها وبغيرها، ها أنت تلازمها الحلول في مكامن المشهد، تلاحظك تلك الأنتى التي سرق منها صوتها في لب عائلة لا يعترفون بها سوى خادمة له ولأولاده، تراك كيف تهتز من شدة المرض :

- يا إلهي أنت ترتجف وتتعرق !! ..

تهتز كزلزال يجتث المدن العملاقة، يهوي بالأبنية الشاهقة حيث الثرى، لا مكان للعلوي مع الثريا سوى حرية المخلوقات جميعا، السماء ملبدة بالطائرات العملاقة التي تنقل قنابل المجازر، تذهب وتؤوب كأن لا شأن لها سوى انتزاع الربيع من الوجوه والمدن، إنه الصيف في منتف الشتاء القارص الذي يجلب البياض إلى هذا العالم القاتم بالسواد، لا تهتز سيدي، لم يعد للهزات أي معنى، إنك واهتزازك هذا عبارة عن صخب للظلام:

- ماذا سوف أفعل يا إلهي ..

- اهدئي لا تفعلي شيئا ..

مصابة بك كأنك أخت لها، تخشى عليك أكثر من خشيتها على نفسها، تقول في أحسانها بأنها إن أنفذتك فإنها ستقذ أبناء يعقوب بأكملهم، في نظرها أنت أكملهم وهي جزء مجزأ من قضية قد

في بيتنا يهودي

أخرجوها منها لأنها أم من أبناء قاتلك، ما ذنب الأدمغة الصغيرة التي لم تر من حياة سوى دمائكم المسفوكة تنحر وتسفك وتروى بها الأرض على مرأى من كل نسمة مرت من أوروبا :
- أنت مصاب بحمى شديدة ..

تمسك يدها، كانت يداك مبتلة بالتعرق، كجمرة أمسكت لوح جليد، إنك أنت من فصيلة الجليد ولكن الخوف من الفناء قلبت موازين ملامحك إلى نار موقدة تحرقك وتحرق غيرك وتذيب نفسك وغيرك على جبل من جليد :
- أنت ماذا كنت تعملين !! ..

تتلبك وتتلعثم، تخشى أن تبوح بما لا يطيقه الصدر، ولكن الصدر ينزف تخبطا مما يجري، إنها تجري وحدها وها قد وجدتك بل وجدت من يجري معها نحو النجاة :
- في الحقيقة أنا طبيبة ..

تصعق بما تسمع، تسمع وكأنك أول مرة تسمع، إنك الآن لا تسمع سواها، تتوقف الهزات التي كانت تهيل على أعصابك وتغرقك بالتعرق :
- طبيبة !! ..

- نعم طبيبة عامة ولكن !! ..
- ولكن ماذا يا دكتورة ؟

في بيتنا يهودي

تخشى أن تبكي تلك المفجوعة بمستقبلها الذي جعلها ربة منزل
في بيوت مغتصبي أهلها .

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

ولكن هكذا هو قانون الحياة المرعب ..

لا مكان للحق على أرض كروية كل من بها من راحة ورزانة
في كفة الظلمة، ولكن أنت وأنت ندور في فلك متناسق بل في
آلة محكمة في قبضة الغزاة ..

- ولكن خشى عليّ من أن يفلت لساني بكلمة أرحل بها إلى عالم
التراب ..

يضرب الفتى كفه بكفه الأخرى كي تستعيد الأرض اتزانها،
ولكن لا اتزان هنا لدوران يدور في قبضة أهل الظلم والظلام :
- أنا لم أفهم إلى الآن، أهويخشى عليك ! ،أم يخشى منك !،
أويخشى أن تدعي أطفاله يعيشون بما تبقى من حياته فسادا
وإفسادا ! ..

أنثى بسن الموت وتموت وتموت كبدر يضمحل ليسن قمرا يجرح
ويذبح ويؤذي ولكنه بالنهاية ينير وينير ويعطي للروح طاقة
ولليل شعاعا يتفياً تحت وهجه العاشقون والبائسون واليائسون
من هذه الحياة، أن نظرت إليها تشعر بأنها الحياة بحد ذاتها،
ولكنك تخفق في التخمين إن خانتك الأمنيات، لا أمنيات هنا
وأنت تبحث عن الذات، لأن الذات مرهونة بكل القيود، كالزوج،
والحب، والأبناء والبقاء على قيد الحياة !! ..

في بيتنا يهودي

هل لاحظت يا ترى كم أنت معلق بتلك التي يطلق عليها حياة،
لوأمعنت النظر جيدا لوجدت أن الموت هو الحياة التي كنت
تتهرب منها أومنه ..

أضحى الموت بسكته قلبية مباغته أرحم بكثير من العيش مرغما
عن أنفك بين أشباه بني الإنسان، مخلوق مسحوب منه مادة
النسيان، إن الذي ينسى يعطوه صفة قبيحة ولكنها في نظري
جميلة، إن نسيت فأنت مجنون أو مصاب بالزهايمر أو يقال
بطريقة مؤدبة قد فقد الرجل عقله، من الغباء أن تطلق هذه
الصفة القبيحة على رجل أنته النعمة حافية تتلبسه وتأوي إليه
كي يريح أثقال دماغه مما يدور حوله من رحي البشر
وصرايحهم على البقاء، أيها الأوغاد لا بقاء على هذه البسيطة
سوى من بسط للعالم رحمته قاصدا بها وجه إنسانيته :

- إنه يخشى من كل شيء وحتى من نفسه !! ..

- أيعقل؟! ..

- نعم إنه يخوض المعارك الضارية من أجل البقاء حيا، ولكن لا
أعتقد بأنه يمكث حيا، قل لي بحق الآلهة كيف لرجل يأتني كل
خمسة أوسنة أشهر مبنل بالدماء، يحمل لأبنائه هداية ألعاب
قديمة الله وحده أعلم من أين يأتي بهذه الأشياء القذرة العفنة التي
يتأجج منها رائحة الموت !! ..

في بيتنا يهودي

الحيرة تفتك بالفتى رغم الذي حدث معه وشاهده على مدى أيام وأشهر بالمطاردة من قبل من نصبوا أنفسهم لحماية لعرقهم الأحمر الملوث بدماء الغير، إنك أنت وغيرك ممن ينظرون إليهم نظرة شيطانية الغير وهم، هم الذين لا غيرهم سيبقى، سخر القدر منهم وضحك القضاء حتى بدت نواجذه :

- هل تعتقدن بأن في عنقه دماء، وأنه لص؟!؟

- أنت تعلم بأنهم كلهم لصوص ! ..

- أنا أعلم ذلك ولكن هناك من خاض هذه الحرب مكرها وليس في يده حيلة، هناك من كذب الكذبة، وهناك من صدقها، وهناك من كذبها، وهنا فصيل ينظر ويشاهد بعيون باردة، من أي فصيل هويا ترى إن صح التعبير!؟

شهق الكلام في حنجرتها المتجمدة، إنها إنسانة كبقية المخلوقات التي تعي ما معنى الموت قتلا، ولكن على يد من ! ويبد من ! ومن الجاني والمجني عليه ..

إنه حبيبها الذي سحر قلبها ببراءته المتكثرة على هيئة صحفي كان يسترزق على بعض الكلمات المنمقة ذات الأسنان الخلابية المناقفة، إنه معروف بين أهل القلم بنفاقه وكذبه ومدحه للطغاة، إنه بائع الكلمات المشهور بين أهل الورق، الورق يقرفه ويقرفه ويمدح جلوسه المتواصل خلف منضدة الليل يقص ويلصق ويمدح

في بيتنا يهودي

ويمجد بالظلمة، إنه يحب أن يصل إلى مرتبة صحفي مشهور ولوظلما، يبيع مبادئه عندما يختلي الليل بسواده بعيدا عن بزوغ النجوم ولمعان القمر، إنه يخشى من النور ومن نضاع البياض، هوايته أن يلطخ الورق بالسواد حتى لا يرى للوهج سبيلا ..

لا سبيل مع من باع أفكاره وحريته مقابل كرسي أوسمعة، وماذا جنى يا ترى سوى الظلم والظلام، حاطب الليل هويحصد الخشب مع الشوك، ليس من أهل القمح والزيتون يكره الخير حتى لنفسه، هو الذي وشى عن حبيبها القديم لأحد مراكز الوشاية في أحد المدن العامرة بالمفسدين، راح الشاب في خبر كان ..

آخ منك أيها الخبر العجوز !! ..

كم كنت خبرا لمن لا خبر له، ولكنك يا أيتها السماء، وحدك تعرفين أين راح ضحية ذاك الرجل، كزهرة البابونج في أوائل الربيع حرقته شمس الوشاية، إنه خسوف من نوع الفصول الناعمة التي تحرق ولا تجني من أفواها سوى الرماد، اختفى الحبيب لختلي الثعلب بفريسته، إنها مشروع طبية في بدايات الشروق، ولكنه من زمرة الليل الذي لا يهوى السطوع بالسطوع على الغير، سرق لبها وأذاب قلبها حتى تمكن منها وخذعها وجرها إلى مأوى بلا مأوى، فقدت أمها وأبيها، وسقط قلمه في كف أهل الوشاية، فراح ضحية لأن يسحب إلى الخدمة

في بيتنا يهودي

الإلزامية التي كان يصفق لها قلمه، تبا له ولقلمه الذي جعل من

أنثى الزيت حجرا لا تسمع ولا ترى !!

- وماذا تريد أن ترى يا ترى !؟

ترى أبنائها الذين انحدروا من رحمها كيف يهتفون بموت من

تنحدر سلالتهم من صلب يعقوب، أولا يعلمون أنها يعقوبية

الهوى، وأن أباهما الذي كان يقرأ التوراة ليلا نهارا كان من أحد

أعمدة هذا المنهج البسيط، ولكن هذا المجتمع لا يتقبل بساطتك،

يريدك مثله دمويا مخلوعا من معاصمك عصمة الروح

والريحان، يريد أن تكون في أعس روائح القدرة لأنك بلغة

أصح أنت في أفكارهم حشرة وهم الفراشات الملونة الربيعية

التي ستنفض عليك وتلتهمك وتجعلك عبرة وآية لغيرك !! ..

- أنا لم أعد أعرف كيف أصنف ذاتي !! ..

إنها ليس خشية وقرب، ولا حب ولا كراهية، ولا مع ولا ضد،

ولا تريد ولا لا تريد، فلسفة قريبة إلى الحيرة القائمة القاتلة

المسمومة التي لا تنفع ولا تضر، ولكن إن بقيت تلك الأنثى على

هذا الحال فسوف تموت بسلاح كاتم للألم من غير أن يعرف

بموتها أحد، لا تريد أن تموت قبل أوانها ولكنها مجبرة على

العيش في وحل كذبة صدقتها وتركت بها أهلها ..

في بيتنا يهودي

إنها ضحية في قبضة أطفال تخشى منهم، نعم إنها تخافهم من أن يشوبها في أسماع النازية، هم ورثوا عن أمهم الجمال الزيتوني، وورثوا عن أبيهم الوشاية ونقل الكلام والقال والقتيل، هم ثرثارين لدرجة لا تتصورها، ولكن قلوبهم طيبة جدا لا بد من إصلاح عقولهم لم يفت الأون، ولكن الأوان في كف رصاصة طائشة تخترق رأس أبيهم كي يشفى الجميع من كفه المغسولة بدماء أطفال اليهود ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

- حسنا سوف أصعد لأرى الأطفال، ومن بعد ذلك سوف أحضر لك الشاي والدواء وغطاء دافئ ..
- أخشى عليك !! ..
- لم يعد يهمني شيء ! ..
- لماذا !؟

- نتحدث لاحقا، سأعود بعد قليل ..

سحبت ما تبقى من أحشائي معها حيث العلوالمؤلم، كنت أراها كيف تصعد درجة درجة على سلم متهاك يكاد يفقد ثقله وينكرنا لأننا نحن لسنا أهلا له، إن الجمادات والمقتنيات تشعر وتعرف ما يدور حولها من مخلوقات تظن بأنها وحدها التي تنبض بالحب ..

كلا سيدي ..

إن ظنك رحل بعيدا مع أحلامك المرقعة بالحب تارة وبالكره تارة أخرى، إن هذه الأشياء المنقولة والغير منقولة في أحشائها الساكنة التي لا تتحرك بركان هائج، وعندما تسلب وتصبح في أيادي أبناء الحرام، فانظر إليها بقلب ينزف !! ..

يا حرام ..

تفقد لمعانها وبهجتها وتتآكل وربما تحترق إن كانت من خشب، وإن لم تحترق فالسوس أولى بها، فله مهمة النهش والتهميش

في بيتنا يهودي

حتى تذوب القواعد وتضحى عبرة لكل سارق مغتصب، وإن كانت من حديد فالصدأ سيبدد واجهاتها ويتراكم على لمعاناها ويسلب منها حرية البريق، يا سيدي هذا البريق ليس لك ولا لأبنائك، إنه لأهلوه الضعاف الذين جردوا من يدك الناهبة السالبة التي تقنات على خبز الضعاف بالخفاء ..

يسير الوقت هنا ببطء، لا حلول في ملكوت الحلول، حيث الظلام الدامس الذي غطى المكان، كان البرد يفتك بمفاصلي التي بدأت أشعر بها الآن، هل من ظلموا على هذا الكوكب يشعرون ببعضهم البعض ! ..

كانت تراقب ذبذبات الاهتزاز الذي تصدره الرجفة المحتدمة بدرجة الحرارة العارية من الأمان، كنت أظن بأني أنا والأمان نقطتان لن نلتقي بتاتا إلا بعد أن أهال تحت أحد القبور التي لا يكتب على ألواحها أسمائنا الثنائية، ولكنها أتت من حيث لا أدري، هل كانت هناك دعوة أب أو قربان لأم أن أحفظ من هذا الموت المؤثث بالرعب ! ..

إنه الباب مجددا يفتح لي بل للحياة والموت معا، تسير كأنها هي التي ألمّ بها المرض، وتسير نظراتي نحوها كأنهما نجمتان تسبحان في فلك أمومتها، تشبه مشي أمي، وأشبهه ذلك الطفل الذي ينتظر أن يسكب في صحنه حساء العدس بالبصل والثوم

في بيتنا يهودي

المجفف، ولكنها الأمنيات التي لن تعود إلا بمعجزة إلهية لتتقذنا من طوفان الدماء المكسوة هنا وهناك، لا هناك مكثا ينتظر بك سيدي أنت وحدك تجلس على منعطف الحكاية وحدك مجرد من ضباب الربيع ووداع ما تبقى من سعال الشتاء :

- أحضرت لك الشاي ..

- شكرا دكتورة ..

خفق القلب باكيا، لا بد أن تبكي على نفسها، لا بد للقافية أن تتأثر بالموت، إنه رحيل الدموع الجارفة نحو الخدود، أيها الدموع لا تكفك ذاتك واحبس جل الوجع في سواقي الصمت :

- منذ زمن بعيد لم يلقبني أحدا بدكتورة ..

- هل أذيتك !؟

- كلا ! .

- إذا لماذا الدموع ؟

- لأنك ذكرتني بأخي الذي لا يلقبني إلا بالدكتورة !!! ..

- ماذا كان يعمل !؟ ..

- كان يدرس الهندسة المعمارية في واشنطن، آخر مرة رأيته بها كان في السنة النهائية له، ولكنه كان يفوقني حنكة وحكمة وفتنة! ..

- لماذا لم يدرس الطب ! ..

في بيتنا يهودي

ها ها ها، أن تضحك أنثى، هذا يعني بأن الحياة لها جمال آخر
يدعى أنت، ولكن أنت لست لي، إنك لغيري، له ذاك الرجل
الذي لا يغتسل إلا بدمائنا :

- إنه يكره هذا النوع من التخصص !.

- هل الطب يكره ! ..

إنها بدأت تستيقظ من سكرة الحاضر الذي جعلها عارية من
ذاتها ومن كل ذاكرتها، تتنأب لها السطور الجارفة، والأرصفة
الخافتة، كأنها إشارة مرورية لم تنضج بعد، ولكنها معطلة عن
اخضرار النضوج، هل ستنضج في فرن هذا القبوالمتهب
بالسواد والمرض والذكريات المخيفة :

- عندما تريد شيئاً تسعى له وتصل إلا ذروته وأنت لا تعرف ما
يدور في فلكه، المصيبة ليست في التعب الذي تعبته من أجل أن
تصل ! ..

- إذا أين المصيبة !؟

- المصيبة عندما تصل وتكتشف أنك مهزوم وأن هذا التعب
الذي تعبته لا يليق بهذا الطموح الذي ترى به كل يوم جثث
أناس لهم ذكريات وعاشوا فترى من الزمن على كفة الحب
والمشاعر المنهمرة أولعها المنهارة !!

- وما أدراك لعله عاش مجنوناً ! ..

في بيتنا يهودي

- وهل المجنون يصبح حيوان إذا فقد عقله!؟
- عفوا، لم أقصد ذلك أبدا ! ..
- أنت ماذا تريد أن تدرس، أو ماذا تدرس!؟
- أنا كانت وجهتي إلى لندن أريد أن أدرس الطب .
- تلاشت تلك السحابة في الحوار، وأصبح الحوار بيني وبينها عبارة عن جسور ممتدة كأنها تعرفني منذ الأزل، كأنها جلست معنا ذات عشاء في أحد ليال السبت تشاركنا تقربنا إلى الله، كأنها تلك الفتاة التي تدعى أختي تجلس في أحد زوايا غرفتي كي تشاطرنني همي وغمي، إنها همي الآن الذي أتمنى أن أنقذه من هذه المخالب الجارحة التي تزحف في شرق أوروبا وغربها:
- مسكين ! ..
- لماذا؟
- لأنك لم تر ما رأيت؟
- وماذا رأيت؟
- أتمنى أن تخرج من هذا المأزق الذي أنت به وتدرس ما تريد، ولكن سوف تذكرني بخير ..
- ها ها ها :

في بيتنا يهودي

- أوروبما سوف أكون أحد الجثث التي أطوى بها على مشرح ما في مشفى ماء، يلتف حولي الطلبة كقطعان من النمل، ويقتاتون ويتناوبون في تشريح مفاصلي وشق لحمي ونهش عظمي !! ..
- لن يكون هذا أنا متأكد ! ..
- وماذا الذي يثبت لك ؟
- لأن الله لن يدعنا وحدنا نغرق في محيط الدماء هذا !!
- إذا أنت المسكينة ..
- جميعنا مساكين، أنا لذي فكرة لم تتضح بعد، ولكن سوف أخبرك بها فور خروجها من فرن دماغي ..
- أنت ذكية ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

إنها الأقدار التي لم تتضج بعد ..

إنه الله الذي يعد مقادير القدر كي يخلص من أنزل عليهم البلاء من شدة البلاء، أنتم البلاء مرهون للموت يسحب من يشاء ويترك من يشاء، بيد العلي القدير ..

إنك في هذا الاكتمال الغير متكامل في ظنك عبارة عن مكوك تدور في فلكه كي تتضج ولكن الطهارة رفعا أقلامهم من النور كي ينجوبأنفسهم، نفسك وروحك وجسدك وأشياء لا تعلمها كلها في مختبرات البحث، البحث عن حقيقة الوجود والحياة، تموت وتحيا وتتجب وتدفن وأنت لا زلت تبحث عن منطق المحور الغير متكامل ..

لا تكمل البحث سيدي ..

أنت في كوكب يريد أن يدميك قبل أن تصل إلى الحقيقة البحتة، يريدون أن يخدموا ذلك النور الذي يدعى أنت، ومن أنت حتى تبحث، هم يرونك بأنك قنبلة موقوتة تريد أن تنفجر في وجه مصالحهم في أية لحظة، ما من لحظة هنا كي تحيا، بل كل لحظائك في محور المنطق تدور في منطقتهم الذي يتقاطر ألما .. هل أنت متألم! ..

فرائصك التي تتربص بك، الرجفة المكونة في كينونة الوجودي المتكاسل، اهتزاز الوجد في أحشاء النص المهمش، جنون

في بيتنا يهودي

التعرق الذي يسيل على جبين القضاء، تقاضيك التفاصيل الصغيرة، وتلاحقك الذاكرة كي لا تقوى ..
ومن أنت كي تقوى ! ..

أنت والعبارات والعبرات عبارة عن دم يسيل كي يرتوا من موتك شجعا، يطمعون في رزقك ودمك وبقائك، لأن بقائك يهدد وجودهم، ووجودهم مرهون ببقائك، وإن فنائك أمنية في كل تراثيل صحفهم المقدسة، قدسية المنطق أن لا تقبى على قيد الوجود ..

في ظنهم هذا الوجود يعد وجودهم هم، وأنت يا مسكين الجدائل المنسدلة للرب الذي يرى كيف تقاسي ما تتلقاه من همج وعجم وجم، تهرب من فخاخ نيرانهم لتقع في فخاخ الأقبية المعتمة، تريد أن تخرج من هنا، ولكن النعمة التي تراها الآن انقلب إلى نعمة كي تستلك من الموت المحتوم، فكان المرض يتربص بك كالجنود المنتشرة هنا وهناك، تريد أن تنقذك أنثى، كنت تظنها بأنها ضلع مكسور ولكنه الله الذي يرمم الأضلع ويجبر كسرهما من أجل أن تحيا مرة أخرى ..

تتركك لاهتزاز المرض تمارس زلازلك النادرة التي اجتثت مفاصل الذاكرة، كي تنام على وحل التعب المعتم، في قلبها

في بيتنا يهودي

حكاية لم تنته ولكنها ستنتهي حيث تتركك للهواء الطلق كغزالة
شاردة تسرح هنا وهناك !! ..

تنام على زحف الظلام المبتل بالرعب ولكن الرعب وأشياؤه
المثوية تريد أن تقاضيك في كوابيس سباتك، تطرق أجفانك بين
كل لحظة ولحظة، ترى جلدك كيف ينكمش وينبسط للعرق
المتصعب من مسامات كانت تنبت زيتونا، إن زيتون السلام
وحمامه الأبيض المنتشر تحت سماء الأمان لم يعد يطير،
حسننا!! ..

ماذا تفعل ! ..

أنت عليك أن تحلق مع بنت طينتك، أنتى تشاطرك فكرك
وعقيدتك وألمك وهمك، في كاهلها أطفال هم لها ولها، ولك أنت
السراب المتستر في الأرجاء ..

يخرج الفجر مرتديا ثوب الخلاص، شال ممطر ومعطف
خريفي، ومظلة سوداء، وقبعة فرنسية، وأنت الذي يدور من
سياط الذاكرة أمانا !! ..

رائحة البصل المقلي على الزيت البلدي، وشخير نار تلتهم
حطب البلاد على أيادي الغزاة، وصمت رهيب مصحوب
بصوت طفولة مسروقة الأمد، أنت الأمد في مبرد الكحل
المغطس بالسم ..

في بيتنا يهودي

يهرع الأطفال إلى مدرسة كنت تتلقى بها الأحرف الألمانية،
واليوم تلقم بها أناشيد الموت النازية، والنار يكوي ذاكرتك
المبتلة بصوت الأصحاب والأحباب الذين قاسمتهم ذاكرتك التي
تكاد أن تختنق من جلجلة دخانها ..

لم يبق أحد في البيت سواك وسواها ..

سوى الله الذي يطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يفتح
باب القبومرة أخرى، تزول عنك حمى ليلة حالكة بالكوابيس
المنتشرة على مخيلتك :

- عمت صباحا ..

- عمت صباحا ..

- كيف صحتك اليوم ؟

- إن الدواء على ما أظن قد أخذ مفعوله وهويسري في الجسد
بسرعة فتاكة، فعلا أنا أشعر بتحسن كبير جدا، وعلى ما
يبدوأنك طبيبة ماهرة ..

تضحك بصوت منخفض تلك التي تشاطرك هما ربما أكبر من
همك، تبادلها ابتسامة صباحية خالية من الهم والغم :

- كلا، الدواء ليس له أية نفع !! ..

- إذا ما الذي حدث ؟

- الذي حدث أن الله يحبك !! ..

في بيتنا يهودي

مختلا بالإيمان أنت، تضع كل ما وصلت إليه من مصائب على عاتق الآلهة، ولكن لا كماشة هنا للآلهة كي تخرج من المأزق الذي دخلته، وحده الله من له جنود كي يخلصك من صخب الحياة، لا تتسرع بالحكم على تصرف الآلهة أبدا :

- وهل ما أنا فيه الآن يعد حبا ! ..

- لن أناقشك في تفاصيل أنت تعرفها منذ أن جعلت من نفسك خادما في معابد الله ..

- وكيف عرفت أنني كنت متعبدا ..

- إن جدانك المدلاة للموت توحى بأنك كنت عابدا صادقا، وقد تمرست فنون التعب في بيت يحب الله حبا جما ..

- لقد أخبرتك أنفا أنك ذكية ..

- منظرك لا يحتاج إلى ذكاء أو فطنة، فلوسألت أحد أبنائي عن وجهك ومنظرك، فمن البديهي أن يكون الرد بأنك إنسان متعبد ..

- أبنائك لا يحبوننا ! ..

- وكيف عرفت ؟

- كانوا ينشدون يوم أمس بالموت لليهود ! ..

- لأنهم مكرهون على ذلك، لو سمعت ابني جون وهويسأل عن هذه المسألة سوف تقول بأن هؤلاء الأطفال فناء جدا، ولا

تفتهم فائنة ..

في بيتنا يهودي

- وكيف ذلك ؟

- ابني جون كان دائما يقول : لماذا نحن ننادي بالموت لليهود،
مع أنني لا أعرف ماذا فعلوا ! ..

- حقا، هذا الصبي ذكي جدا ..

- صدقني يا أخي أنه ليس نكاء بل فطنة وحنكة، الله يضعها في
قلب كل إنسان يريد أن يصل إلى الحقيقة، الحقيقة لا تريد نكاء،
فقط قليلا من الإنصاف وتنتهي القضية ..

- الأطفال تربية أهم ..

في بيتنا يهودي

الدهاء والحكمة إخوة ..

الدهاء ذكاء في أغلب المراحل، والمرحلة التي يعد بها الداهية ذكيا، هي المرحلة التي تأتي وقت المصائب، في نفس اللحظة التي يقع بها الإنسان في فاجعة ما تؤدي به إلى المهالك ..

قليل من بروتين الحنكة والحكمة ويخرج الإنسان من ورطة قد تؤدي به في المخاطر أو إلى الموت أربعين خريفا، ولكن الخريف الذي مضى كان أجمل خريفا بالنسبة لي، المكسرات تجلب من الغابات الباسلة، إلا إن النازيين جعلوا من تلك الجنان جهنم بفؤوسهم التي تقطع ولا تزرع، لا نريد أن نظلمهم، بل هم زرعوا الظلم في كل أنحاء أوروبا، وجعلوا منها سعيرا ..

- اسمع أخي ..

- أنت أختي فعلا ..

- كلنا في ميزان المنطق إخوة ..

- حسنا ..

- وحتى من يتربص بنا هم إخوة لنا ..

- لن أخالفك الرأي، مع أن رأيي يختلف عن رأيك ..

صمت فمها عن البوح بما تريد أن تبوح به، صمت معها، وجدت بأنني قليلا للأدب، بين كل فينة وفينة أقطعها، كأنني

في بيتنا يهودي

مقص يشق ولا يخيظ، أصبت بالإحراج، ولكنها تعرف كيف
تداوي الموقف الحساسة :

- سوف نخرج جميعا من هنا ..

تلبدت العروق في دمي، ابتلعت ريقى، وبدلت من جلستي :

- من تقصدين جميعنا ! ..

- أنا وأنت وأبنائي ..

- هل تريدين الفرار معي ! ..

ها ها ها، ضحكت حتى شعرت بأنني نقاق وأحمق، ولكن لم
يصدر منها شيء إلا الصمت واحمرار في الوجه :

- من حقك أن تسخر ..

- آسف لم أقصد، ولكن هذا الاقتراح لم يدخل دماغي أبدا، إنه
شبه مستحيل، بل أكثر من مستحيل ..

- أنتم مشكلتكم الذي تتعمقون في الدين بأنكم تكثرون الأسئلة
والكلام بلا فائدة، تدعون بأنكم تعرفون كل شيء وأنتم لا
تعرفون كيف ترتدون سراويلكم ..

كانت توبخ وأنا أدوب كشمعة باهتة تريد الفرار من لسانها، كأن
التي تكلمني هي أُمي بالضبط، ترشقتني رشقا بالكلام كأنها سياط
تهبط على قلبي، بت لا أشعر بشيء، هيا يا أنثى يعقوب أمطرينا
بالحجارة التي لا تتوقف عن الهطل والهبوط على أسطح عقولنا،

في بيتنا يهودي

انكشيت في تلك البطانية التي أعطتني إياها وذبت كدودة قد
رش عليها شيء من الملح البحري، يا إلهي تكاد لا تصمت،
دائما كنت أقول بأننا نحن من يجب أن نسمع لا هنّ ..

- آسف مرة أخرى ..

- أنتم في الحقيقة لا تتأسفون على شيء، وإن قدمت لكم مساعدة
لا تشكرون، وإن شكرتم فإن الشكر يخرج من طرف أفواهكم
التي لا تكاد أن تطبق أبدا .

صمت ولن أزيد على كلامها ولا بكلمة، صخرة محبوس خلفها
نهر وانفجرت، تركت لها تلك المعجزة التي تريد أن تخرجنا
منها :

- أنت تشبه أخ زوجي كثيرا، قبل أن نأتي إلى هذه المدينة جاء
إلينا بزيارة كي يودعني، ولكنه نسي محفظته وذهب ولم يعد،
أنا في الحقيقة لم أعرف ما الذي دهاني حتى خباتها ..

- تقصدين سرقتها !! ..

- كلا بل احتفظت بها كي أعيدها له، ونسيت أن أخبر زوجي،
ولكن هنا تكمن المعجزة، إن زوجي كل خمسة أشهر حتى يعود
إلينا من تلك الحرب القاتلة التي تطحن البشر طحنا ..

- وأنا، ما هو القاسم المشترك بيني وبين ذاك الرجل ! ..

في بيتنا يهودي

- سوف تبدل ثيابك وتحلق جدائك وشعرك لحيتك وتضبط منظرک، سوف أعطيك ثيابا تشبه الثياب التي يرتديها ذاك الوغد..

ها ها ها :

- هل حقا هو وغد؟! ..

- نعم إنه رجل قدر، يشبه أخاه الأحمق الذي جعلنا مطية للموت، ولكن لن يفلت من عقاب الله، سوف يلقي حتفه قريبا، أريد أن يعيش أولادي بعيدا عن هذه التفاهات التي تحدث وبعيدا عن رحى الموت التي تدور ..

- وإلى أين سوف نهرب يا ترى؟! ..

- إلى لندن! ..

- ماذا؟

- نعم لندن تأوي اليهود ولا تسمح للنازيين للاقتراب منهم أبدا، فلقد سمعت بأن جل اليهود السياسيين الذين هربوا من هذا الرعب قد استوطنوا تلك البقعة لأنهم في حماية الملكة، إنها فرصتك لتكمل مستقبلك ..

لندن ..

معاقل الأمان ..

في بيتنا يهودي

الحلم الذي كنت أتمناه، الجامعات ودور الأبحاث، والمكتبات الضخمة، وطلبة العلم بكل فنون العلوم، إنها القبلية للحياة مرة أخرى، ولكن في الأحشاء غصة بحجم هذا الكون الذي يتخبط حربا، أبي وأمي وعائلتي، كيف لي أن أترك الذاكرة وأهرع إلى وطن بديل :

- حسنا دعيني أفكر جيدا ..

- لا وقت للتفكير، يجب أن تعطي قرارا الآن، لقد سمعت ابنتي ماري بأنها تريد اقتحام القبو عندما تعود من المدرسة لهذا اليوم، وإن رأتك هنا بهذه الحالة فسوف تعرض نفسك وتعرضنا للموت جميعا بسبب تانيك وتفكيرك الطفولي ..

- شكرا ..

- آسف أخي لم أقصد أذيتك أبدا، ولكن الوقت لا يتحمل كي تفكر فأنا أريد قرارا في هذه اللحظة، وإن لم تخاطر بنفسك فأنا أفكر بأن أهرب وحدي ..

- فعلا أنت قوية جدا، حسنا أنا موافق ..

- يجب أن تصعد معي إلى الأعلى فأنا جهزت كل شيء، سوف أعرفك بأبنائي كي لا تخطأ بينهم عندما يعودون من المدرسة ..

- يا إلهي ..

ها ها ها :

في بيتنا يهودي

- لا تقلق إنهم طيبين جدا لدرجة لا تتصورها !! .

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

- عندما أسمع صوتهم وهم يهتفون بالموت لنا أشعر بأن الموت اقترب إليّ .

- لا تفكر بالموت الآن، لا وقت من أجل إن تفكر، يجب أن تصب جلّ تفكيرك في الخروج من هنا، يجب أن تأتي معي الآن..

كنت أصعد على السلم الذي لم أهبط منه، شيء مخيف قد أحترق صدري، كلما صعدت درجة خفت دقات قلبي درجات عدة، إنني في لحظات عدة وأكون كما تريد هي لا أنا، سوف تجعلني أخلع ذاتي من أجل أن أنجوبنفسى، إن المظاهر أشياء مستودعة عند الله، يردها الله لك فور نجاتك من مصيبتك ..

فلسفة النجاة والهروب من الهرب المحتمل الذي لا بد أن يلاقيك وبأي شكل كان، أنت لا تريد أن تموت عذابا، تريد عذابا يليق براحتك بعد أن سحبت من هذه الحياة البهيجة، في الحقيقة أنت ووجودك نقمة على الحياة بحد ذاتها، فتخيل لوأن من أحببتهم لم يرحلوا وطالت أعمارهم ! ..

تخيل درجة القرف الذي سوف نعيشه معهم، وأنت أيضا كالمثل، فتأكد بأنه لن يحوطك أحد، لأنك تحتاج إلى من يخدمك، والناس لم يخلقوا من أجلك ومن أجل قرف ما تبقى من حياتك

في بيتنا يهودي

التي هي في الأصل خطأ مطبعي أتيت به عنوة رغما عن أنوف
هذه البسيطة ..

يا سيدي لن أتخيل، لأن مد الخيال مثل هذه مشاهد مزعجة
ومؤذية ذنب كبير للمساحة الجمالية التي يحتويها صدرك، وجد
الخيال للجمال وإن وظف هذا الخيال في غير مكانه فإنك سوف
ترى الكوابيس التي لن تنجومنها، صار لزاما أن تذهب إلى
طبيب نفسي كي يخلصك من هذا المرض المزمن ..

الخيال يقول في هذه اللحظة بأن الطريق الذي تشقه لك هذه
الأنتى التي بينك وبينها صلة عرق من لب لبك بأنها سوف
توصلك إلى الأمان، والأمان يقترب إليك كلما علوت درجة،
وكلما تركت درجة تركت للذاكرة تكنيس ماضيك المحشور عبا،
في وسط السلم ينتابك شعور الذي يريد أن يتقيأ، لأنك اندمجت
برائحة القبور الرطب، وصدرك لن يتقبل سواه، ولكن من لسواك
إلا سواك ..

إنه النور الحقيقي الذي يخترق عيناى المنهمكتان بالمرض، فتح
باب القبو، كأن حمامة مأسورة لدى صياد وفتح لها القفص :

- تفضل من هنا إلى الحمام ..

سرت خلفها، ومع أن هذا البيت ليس لها إلا أنها تعرفه جيدا،
ولكأنها عاشت حياتها بين جدرانها، تشعر وأنت تسير خلفها بأنها

في بيتنا يهودي

جزء من ذاكرة هذا البيت، تشعر بأن الذي يراودك أكبر بكثير

ممن يسعى لإنقاذك، تشير بيدها :

- الآن احلق لحيتك، وشعر رأسك ..

أخرجت صورة من جيب فستانها الطويل :

- أريدك أن تكون مثل هذا الشخص تماما ..

أصبت بالدهشة، دهشة تفتك بي، إنه أنا حقا، يشبهني كثيرا،

كيف لها أن تصل إلى هذه الدرجة من الفطنة والحكمة والذكاء :

- يا إلهي، إنه يشبهني حقا ..

ها ها ها :

- نظرت إلى عيناى نظرة تأقبة، اقتحمت تلك النظرة قلبي وثقبت

في جدار الروح مسمار الثقة، وعقلت عليه كلمتها :

- سوف تصل إلى لندن أنا متأكدة، وسوف تكون ذاك الطبيب

الذي يعالج البشرية من غير الانتساب إلى أية عرق أو دين،

الحرية ثمنها كبير، كبير جدا يا دكتور ..

تركتني في ممر الحمام للدهشة، للثقة، للأمان، للحرية، وسارت

إلى الظل الخافت في ممر البيت :

- شكرا ..

غمزتني من بعيد وهي تسير :

- بكل سرور ..

في بيتنا يهودي

دخلت إلى الحمام، نظرت في المرأة الكبيرة المعلقة لكشف الوجوه والأجساد، معلقة معتقة متشققة، أكاد أجزم بأن الذي شاهد نفسه من خلالها أضحى ضحية للموت أو الهروب، ولكن لن تجزم الآن قبل أن تجزّ شعرك، إنه شعرك الذي تركته نذرا لله، إن الله لا تعجبه شعورك ولا ملبسكم ولا كلامكم، بل إلى صدوركم النقية الطاهرة التي لا تفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان ..

مقص ككفة اليد، كل شيء قديم في تلك اللحظة الدرامية، كل شيء فاقد من الشيء إلا شيء واحد فقط، هو أن تفقد أنت عقلك وتسير خلف الذين أشبعوك عقيدة بأن النجاة تكون بهيئتك التي لربما ستقود بك إلى الموت ..

أمام المرأة أقول :

تحلى بالشجاعة، هي لا تتردد وجز ذاك الشعر الذي لو كان به خيرا لأنجارك من قبضة الموت، ولكن أمام المصائب إن لم تعمل عقلك وتدع أحاديث الدجل والشعوذة والغيبيات والروحانيات فسوف يكون مكانك المناسب في أحد الحفر المنسية ..

قصصت جدائلي، قصصت الذاكرة، نزعت لحيتي، نزعت الماضي، وتركت شاربا يشبه شارب الطغاة، أنا لست طاغيا

في بيتنا يهودي

بتاتا، أنا لست منهم أبدا، أنا هوأنا، هم أيضا هم، ولكن ما في القلب أعظم من هذه الترهات ..

خلعت معطفي الممزق الذي أخذت وعدا أمام الرب أن أموت به شهيدا ..

غبي أنا بكل منطق الأغبياء ..

تركت تلك الأثواب السوداء والقميص الأبيض الذي أضحي كالممسحة للأرض المبتلة بالماء، وغسلت جسدي حتى شعرت بأن الرب غفر لي ..

إنها ثيابهم، أشاهدها الآن، على مقاس خيبيتي، على مقاس بؤسي، ولكن يجب أن أتلون بهم كما هم يتلونون لسلطانهم، ارتديتها مكرها مجبرا ..

ولكن بكيت وقتها بعد كل هذه المسافات الهائلة بالخوف، نظرت إلى الصورة التي أمدتني بها، وجدت نفسي أمام رجل يشبهني شكلا وعدوا لي وللحقيقة، هبط في قلبي ثقة مطرزة بالأمان، صمت ورتبت نبضات قلبي ونظرت إلى المرأة مرة أخرى وصرخت في وجه من يشبهني :

- نحن قادمون أيها الأوغاد يا أعداء الإنسانية ..

خرجت إلى الممر، خرجت إلى الركن الذي سوف أرى به هذا العالم بصوتهم هم لا بصوتي، سوف أمشي في شوارعهم،

في بيتنا يهودي

وأركب حافلاتهم، أتكلم بنبرتهم الحادة القاتلة، سوف أضع على رأسي قبعة بلون قبعاتهم، وأمسك سيجارة كالسم الذي يتجرعون، وربما سأشرب نبيذهم، وأسكر وأرقص وأتمايل على الموت الذي يلحق ببني عرقي، سوف أغني أغانيهم وأهازيهم وأردد شعاراتهم وأكل من لحومهم التي تشوى على خشب غاباتنا، وألقي السلام على هذا وذاك، وأغمز بعيني التي لم تر من هذه الدنيا سوى طهارة التوراة ..

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

- خرجت من الخيال إلى ممر البيت ..
أشبه شخصا آخر يدعى هو، وأنا لست أنا، لقد أضعت كثيرا من
الوقت وأنا في تلك الحجرة التي تدعى حجرة التنكر :
- أوه، فعلا قد تغيرت الحمد لله أنك مطابقا ..
- حقا أشعر بالقرف !! ..
- كلنا نشعر بالقرف، ولكن يجب أن نتخلى عن أحب الأشياء من
أجل أن ننجوم من قبضة الموت !! ..
- تبا للحياة ..
- وأنا معك، بل وألف تبا ..
جلسنا متقابلين على طاولة الحياة نعد لأرواحنا طريقا نرسمه
كي نصل إلى لندن، وتعرفني بأولادها الذين لا أعرفهم وإن
رأوني فبالأكد بأنهم سوف يعرفونني، كنت أضحك من هذا
المقلب الطويل الأمد الذي سيجري أسبوع كامل ونحن نسير إلى
لندن مع هؤلاء الأطفال الذي يشبهون القروء، دخلوا علينا من
بوابة البيت كالفراشات، اقتربت إليّ الطفلة تضمني حتى خلعت
كتفي، شعرت بأنها سوف تأكلني :
- أوه عمي في منزلنا ..
الأطفال البقية أشد ذكاء وحنكة هم مثل أمهم نبهاء :
- لماذا أنتم واقفين هكذا ! ..

في بيتنا يهودي

كانت أصابعهم تتحت في أفواههم، لا أعلم ما الذي يدور في أدمغتهم، أطفال بسن الحب والزهور مشربون بفكرة الانتقام منا نحن، ولوسألتهم لماذا تريدون أن تقتلونا سيقولون لك :
لا نعم ..

ونحن أيضا لا نعم لماذا نقتل على أيديكم، ولكن لا مكان الآن للمزاودة والمزايدة، اقتنع أحدهم أنني عمه فأتى ليقباني فقبلته فيه من أحفاد أبي شبه كبير، أمه من أبناء يعقوب مسكينة تخلع موارد قلب من الوجع، ولكن الله سيرمم كسرهما المنحني ويجبر قلبها المتآكل ..

- لماذا أنتم مثل الأغبياء تقفون هكذا ..

صرخت بهم كي يققوا صوت التفكير ونزيف التساؤل والتعجب، ولكنهم بادروها بالطاعة، تعجبنى طريقة الانتقام ولكن هؤلاء ضحايا أفكار القتلة، بت أساءل لوانقلبت الطاولة على هذا الفصيل النازي ورجحت كفة الحرية وانتشر الحب على هذه القارة :

ماذا سيحدث لأطفال القتلة !! ..

إنها جريمة بشرية ولعبة قذرة يحيكها الكبار، والضحية تلك البراعم التي تنشد للموت ولا تعرف لماذا تنشد، وتهتف بالقتل

في بيتنا يهودي

وهي لا تعرف كيف تقتل، وتنادي بالانتقام وهي لا تعرف
الانتقام ..

الانتقام سيف المرضى، العفوعن الجاني عطر أهل الحب،
والحب إن كان مفقودا فهذا لعمرى كارثة ستحل على دماغ
البشرية :

- عمي هل ستبقى معنا ! ..

تتنظر الأم في عيون الطفلة :

- كلا يا أمي، لقد جاء من أجل أن يصطحبنا معه إلى لندن ..

الطفل الكبير كان رأسه قاسيا من الحشواالغير منطقي :

- ولكن أبي يكره لندن ! ..

- أبوك يريد أن يخرجكم من هنا من أجل أن تعيشوا بسلام .

- لا سلام مع القتلة ! ..

كنت أتعجب عن يقصد، من هم القتلة، كنت أضحك في قعر

قلبي من هذا المنطق الأعوج :

- اسمعي يا أمي بعد قليل سوف ننطلق إلى لندن مع عمك، لقد

وصلتني رسالة من والدك بأن الغزاة سوف يأتون إلى هذه

المدينة وهوخائف علينا ..

في بيتنا يهودي

نعم بالفعل الطفل الكبير رأسه قاسي كراس أبيه تماما، ولكن ملامحه الناعمة تشي بأنه بريء وحنون، لم أعد أثق بالملاحم التي تشي والتي لا تشي ..

الحياة الصعبة التي قاسيتها أنا ككاتب كشفت لي الملاحم الوديفة من الملاحم الخليعة، عشت حياة في حقل من الوجوه التي إن رأيته سوف تقول بأن هذه الحفنة من البشر ملائكة منزلة من الله تعالى، والله تعالى دائما يحذرنا أن نتنبه لأن كثير ممن قابلتهم بملاحمهم البريئة كانت قلوبهم مظلمة مجبولة بالتبن، وحتى لا أطعن بالتبن وللأمانة التبن أظهر منهم، تخليت عن الوقوع في الملاحم والبحث في نوات هذه المخلوقات الغريبة في ظني، حتى وصلت إلى قاعدة :

الوجه وجه ظبي والقلب قلب ثعلب ..

مثل الغبي دائما أقع في فخاخ وشباك من يبتسم لي ويقودني إلى المهالك، أضعت أجمل سنين حياتي في مداراة هذه القطعان البشرية، حتى أمي كانت تقول لي :

- إن طيبة قلبك سوف تقود بك إلى المهالك ..

صدقته وهم كاذبون ..

ذهب المال والصحة والعافية في قلوب وجيوب الغير من أجل إرضاء هذه الحثالة الممتدة في أرض الله، ونسيت بأن لي نفس

في بيتنا يهودي

لها حق علي، تلك النفس التي جعلتها حقلا للتجارب، وحتى
جربت عليها كل قوانين البشر والآلهة، أهلكتها حتى عطبت
وجفت آبارها، وجف كل ما بها من موارد للحب، وصلت إلى
منعطف الصمت، بل إلى منطق العقل الذي يقول :

هل رأيت ماذا فعلت في نفسك ! ..

سوف أكذب على نفسي إن اعتذرت لها، هل أقول لها :

أسف !؟

ماذا سوف تنفع الكلمات والروح تنزع من الجسد !، كل الذنب
هو ذنب ذاك القلب وإرادتي التي لم أحكمها بالعقل والتعقل، ولكن
هل فات الأوان ! ..

كلا لم يفت ..

كنت ألتفت إلى الذاكرة كم أضعت من أناس كانوا يحبونني، ليس
لأجل شيء ما، بل لأجلي أنا ومن غير مقابل، بينما كنت ألحق
النذل ابن النذل الذي جعل من ما تبقى من حياتي أضحوكة، هم
هكذا ومن غير أية مقدمات لن يحترموك ..

تكذب على نفسك مرة أخرى كي تقول سوف أصبر ..

أصبر يا صديقي، ولكن لن ينفعك الصبر أبدا، أنت بحاجة إلى
جرعة أكبر من الصبر، طاقة حالكة إلكترونية، كمزيل
الفيروسات من جهازك المحمول، تخرج هذه القاذورات من

في بيتنا يهودي

قلبك وعقلك ودماعك وروحك، تريد أدوات تطهيرية كي
تتخلص من الطلاسم المدسوسة في كل مفاصل وعقد جسدك
المعقد ..

في الحقيقة يا صديقي أنت لست معقدا بتاتا، هم من جعلوا من
براءتك كتلة معقدة حتى كرهت نفسك وأنكرت ذاتك، هم
يريدون لعقلك أن يحلق عاليا سكييرا عربيدا ابن حرام كي
يرضوا عليك، هم يريدونك مثلهم متساويا معهم بالنجس والقذارة
ولكن ليس أقدر من :

في بيتنا يهودي

في بيتنا يهودي

من أرض كانت بالأمس لك وهي لهم ..

حملت الحقائب تنوي الرحيل، إلى أين سيدي ! ..

من المتكلم !؟

أنا فيينا، العاصمة التي شاطرتك الذاكرة وشرطت أجمل ما فيك
وجعلتك تنكر أنك أنت منها وبها وإليها تعود، هل حقا سوف

تعود ؟

نعم، ولكن إلى أين !؟

إلى الأحياء القديمة، الحمام الرمادي، السماء المعتقة بالفيروز،
المساء الخريفي النحاسي، الصباحات المطرزة بقهوة العاصمة،
البشر الذين يحبونك وتحبهم، الأشجار البالية، والبجع المترنح
على نهر الدانوب !! ..

هل بقيت هذه المشاهد التي تقول عنها !؟

نعم إنها في الذاكرة على منضدتك تحتسي الشاي معك، بجانب
أوراقك، وكتب الطب، من بعد أن أنقذتك أنثى تشبهك حبا، ها
هي تودعك كي تهرب مرة أخرى إلى واشنطن ..

ولكن أنت ماذا تفعل هنا ؟

أنا أعتذر ليس عندي وقت، هذا آخر امتحان لآخر سنة في كلية
الطب في جامعة لندن ..

حسنا ..

في بيتنا يهودي

هيا لا تذهب !

ماذا ؟

لا شيء وداعا ..

في بيتنا يهودي

أتممت رواية :

في بيتنا يهودي

في بلد الحرية والديمقراطية: النمسا، في عاصمة البيانو
والكمنجة: فيينا، مع غياب الأمان من هذا العالم المرعب الذي
أشبعنا كذبا ..

في مقهى HORNIG، في الحي السابع ..

الساعة : 00 : 06،

من تاريخ : 20 / سبتمبر / 2018.